فلاديمير فينوغرادوف

مصر
في زمن الإبهام

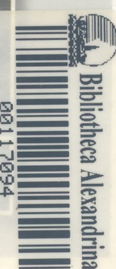
مذكرات

السفير السوفياتي في مصر

خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣

ترجمة زكريا لبيب





مصر في زمن الإبهام

* دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة
سورية - دمشق - ص. ب : 4490
هاتف ، فاكس : 2126326

* دار الكلمة للنشر والتوزيع والطباعة
سورية - دمشق - ص. ب : 2229

* الطبعة 1 - 2000 - 1000 نسخة

فلاديمير فينوغرادوف

مصر في زمن الإبهام

مذكرات سفير الاتحاد السوفياتي في مصر خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣

ترجمة: زكريا لبيب خوري

في حياة الدول التي حصلت على استقلالها (منذ زمن ليس بعيداً نسبياً) قد يحدث نهوض مؤقت، أو قد يحدث تراجع سريع عن النهج والأهداف التي كانت تسعى لتحقيقها. وهناك محطات توقف، قد تطول أحياناً، يسعى من خلالها قادة هذه البلدان للالتفاف حول الأهداف (الحلم) ليتخلوا عنها مع الزمن..! وتلعب صلابة ومناعة الوضع السياسي الداخلي لهذه الحكومات، دوراً كبيراً في هذه الأمور، مضافة إليها فعالية القوى السياسية الخارجية وتأثيراتها. وغالباً ما تلعب شخصية الزعيم في هذه الدول، دوراًهاماً في توجيه السياسة العامة لهذه الحكومات.

بالنسبة للعلاقات السوفياتية ـ المصرية، لقد مرت في مراحل متنوعة وكانت للتغيرات الداخلية لهذه الدولة العربية الكبيرة، والمؤثرة في مجمل العلاقات السياسية في المنطقة، أثره الكبير على صعيد هذه العلاقات. وقد ساهمتُ في هذه العلاقات، من خلال عملي كسفير للاتحاد السوفياتي في مصر على امتداد أربعة أعوام (١٩٧٠ ـ ١٩٧٤)، وكانت مساهمتي مساهمة فعالة في مباحثات السلام بجنيف الخاصة بالمنطقة (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤). في هذه الأعوام بالضبط، نشط دور الولايات المتحدة الأمريكية،

وأصبح دورها السياسي جلياً وواضحاً، مستفيدة من الوضع الداخلي المصري المعقد، بعد موت جمال عبد الناصر، لتتقرب أكثر من مجريات الأحداث في الشرق الأوسط وبشكل خاص مع مصر.

كان سلوك السياسة الأمريكية في ذلك الوقت، هو العمل وبجميع الوسائل على تحلّل مصر من جميع التزاماتها واتفاقياتها، بل وتخريبها (وبشكل أساسي) مع الاتحاد السوفياتي. وقد قدم أنور السادات للجانب الأمريكي، مساعدة كبيرة في هذا المجال، مما أدى إلى تأثير السياسة الأمريكية في مجرى الأحداث العامة للمنطقة العربية وخاصة بعد تعيينه رئيساً لمصر عقب موت جمال عبد الناصر المفاجئ.

لاشك أن المنطقة العربية تظل كما كانت سابقاً، من أكثر «النقاط الحارة» على كوكبنا هذا. وأن معالجة الوضع أو النزاع سلمياً في هذه المنطقة مع توفير وضمان السلام العادل للأطراف المتحاربة، يعتبر من أهم الواجبات التي يقع تحقيقها على عاتق المجتمع الدولي.

إن فكرة حل النزاع العربي الإسرائيلي عن طريق إقامة صلح منفرد في ظروف غير متكافئة بين الطرفين (مع الإصرار على عزل أو ابعاد الاتحاد السوفياتي كطرف من المشاركة في مباحثات السلام)، هي فكرة قديمة، لكنها لن تؤدي إلى تحقيق مصالحة عربية - إسرائيلية، متكافئة. إن الدور الأمريكي في هذا الصلح يبدو متحيزاً وبشكل واضح للجانب الإسرائيلي، ومتجاهلاً لما أقرته هيئة

الأمم المتحدة والقاضي بأن حل النزاع العربي - الإسرائيلي في المنطقة، من خلال مباحثات السلام في جنيف (بما يخص مصر وإسرائيل) يجب أن يتم بمشاركة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وأعضاء آخرين من مجلس الأمن.

(١)

كان مساء ٢٩ أيلول ١٩٧٠ ـ بارداً وماطراً، عندما عدت إلى منزلي من وزارة الخارجية لتفاجئني زوجتي:

ـ لقد تلفنوا لك تواً من هناك... وطلبوا إليّ أن أبلغك بأن تتصل بهم... فور عودتك.

بعد اتصالي، تبين أنه من الضروري أن أعود فوراً إلى الوزارة، لماذا؟..

ـ لا أعرف.

في ذلك الوقت، كنت أقوم برئاسة قسم الشرق الأوسط. ولدى وصولي إلى مكتب نائب الوزير الأول، فاسيلي فاسيلفيتش كوزنيتسوف، علمت بالخبر الصاعق.

ـ لقد أعلمنا القائم المؤقت بأعمال السفارة السوفياتية في مصر (في ذلك الوقت كانت تدعى الجمهورية العربية المتحدة) فلاديمير بولياكوف، بموت جمال عبد الناصر المفاجئ، رئيس مصر ورئيس وزراءها، قائد الشعب المصري، الزعيم التقدمي في العالم العربي، الصديق الأكبر للاتحاد السوفياتي. وأن بولياكوف يدعونا وبسرعة للحضور إلى مقر الرئاسة المصرية في القاهرة، لتقديم التعازي، وإن

مصر تعيش حالة من الحزن الشديد، وقد أعلمنا بذلك فور عودته إلى السفارة السوفياتية. «مات ناصر بعد أن قام بتوديع الرؤساء العرب الذين أنهوا مؤتمراً ناجحاً في القاهرة، كان قد تم عقده لإيقاف الاقتتال العربي الأخوي، على أثر النزاع الفلسطيني الأردني، ولقد شعر بأن وضعه الصحي ليس على مايرام ـ بسبب الجهد الذي بذله أثناء أعمال المؤتمر ـ أثناء توديعهم في المطار...»

لا أريد أن أصدق ما سمعته... متذكراً لقاءاتنا بناصر، في موسكو والقاهرة. كانت تنبع منه القوة والثقة إلى جانب حبه للأصدقاء. كان ناصر يسعى إلى استمالة محدثيه إليه: ـ محباً لضيوفه، محسناً استقبالهم، كان يحب أن يدخل المزاح والنكتة في الأحاديث الرسمية وأحياناً يلجأ إلى الإغاظة اللطيفة المرحة لبعض جلسائه...

لقد استقبلني في بيته البسيط مرتين. تبادلنا خلالها وجهات النظر بخصوص الصراع العربي الإسرائيلي.

في ذلك الوقت كانت مصر، تتبع سياسة «حرب الاستنزاف»، بإطلاق نيران المدفعية على المواقع الإسرائيلية، التي قامت باحتلالها في شبه جزيرة سيناء، وبالتحديد الضفة الشرقية من قناة السويس. إضافة إلى هذا، فقد شكل المصريون وحدات من (الكوماندوس) لتنفيذ عمليات عسكرية في العمق الإسرائيلي، كرد على القصف الجوي الإسرائيلي لأحياء المدن المكتظة بالسكان والقرى المصرية. وكانت وحدات الدفاع الجوي المصري ماتزال ضعيفة بعد عدوان حزيران. وقد راحت مصر تعيد بناءها بنجاح، بمساعدة الاتحاد السوفياتي.

كانت نتائج العمليات العسكرية المصرية - بالرغم من أنها كانت تقض مضاجع الإسرائيليين محدودة، يرافقها اعلام مصري مركز على الأعمال الوحشية التي قامت بها إسرائيل في حرب «الأيام الستة لعام ١٩٦٧»، حيث أن الإسرائيليين يتبعون أسلوباً وممارسات من الإرهاب والمداهمات والتنكيل بالشعب العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة.

كان ناصر - بغض النظر عن أعضاء قيادة الثورة العاطفيين (وهذه الصفة كانت تغلب على جميع العناصر التي قامت بثورة يوليو ١٩٥٢)، واقعياً، عندما يتطرق الحديث إلى مصر.. - نعم - كان يقول: إن إطلاق النار عبر القناة، لن يعطي نجاحاً كبيراً، وسنوقف القصف، في حال إذا توقف الإسرائيليون عن قصفهم الجوي، وأن شعبنا مستعد دائماً لأن يضحي بأرواح أبنائه في سبيل تحقيق النصر.

لم يصل ناصر إلى فكرة السلام مع إسرائيل - بشكل سريع - في حال إذا وافقت الأخيرة على إعادة الأراضي المحتلة، متجاوزاً الفكرة العربية الراسخة في الأذهان بضرورة طرد إسرائيل عن طريق الكفاح المسلح، من جميع الأراضي المحتلة بما فيها فلسطين، والتي كان ناصر يتبناها مثله، مثل جميع الزعماء العرب الذين رفضوا وبعناد مقررات الأمم المتحدة لعام ١٩٤٧ ، والقاضية بتقسيم فلسطين إلى دولتين: «يهودية وعربية». انطلاقاً من هذه المواقف والذهنية العربية، كنت (وأقول هذا بصراحة) غير واثق من صدى حديثي، عندما بدأته مع ناصر، بجس نبضه حول إمكانية قبوله

إقامة سلام مع إسرائيل، في حال موافقتها على الانسحاب من الأراضي المحتلة ـ لأن حديثاً كهذا كان وقتئذ حديثاً لافائدة منه.

كانت المباحثات التي أجريتها مع جمال عبد الناصر في شباط ١٩٧٠ ، أكثر حيوية مقارنة بالمباحثات السابقة، فقد حمل كل منا في جعبته حججاً متعددة. حاول ناصر وإلى درجة ما وبشكل تحريضي أن يمتحن صلابة مواقفنا:

ـ «إن جوهر ما يسمى بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، ماهو إلا انعكاس للخلافات العنيدة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية..»

أجبته عندئذٍ:

ـ «إنه ليس صراعنا، وأنت تعرف ذلك بشكل جيد، بل إنه صراع بين القوميين التقدميين العرب، والشعب العربي المناضل في سبيل استقلاله القومي من جهة، وبين الإمبريالية العالمية، والتي تقوم بخدمة مصالحها في الوقت الراهن حكومة إسرائيل من جهة أخرى. ولهذا فإننا نقف بشكل طبيعي إلى جانب الحق العربي في مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية الداعمة لها».

ضحك عبد الناصر قائلاً:

ـ أنت شجاع، لم يسمح أحدٌ لنفسه ـ حتى الآن ـ بمناقشتي بهذه الصلابة. لكن إذا أردت الجد، فإن الشعب المصري شعب محب للسلام، ونحن مستعدون للتحدث عن السلام مع إسرائيل، في حال إذا وافقت وانسحبت من الأراضي العربية المحتلة، فمن

العبث أن يصورنا أعداءنا على أننا شعب متعطش للدماء. نحن جاهزون لاتباع جميع الوسائل السياسية الشريفة لبلوغ حقوقنا الشرعية والعادلة ـ وكانت هذه مفاجئة حقيقية.

جاء عبد الناصر، إلى موسكو لآخر مرة في صيف ١٩٧٠ للعلاج ـ عندئذٍ فاجأني شكله ـ بوجهه وعينيه اللتين كانتا تحملان ألماً دفيناً، ممزوجاً بعلامات المرض، وهذا لم يكن ليتناسب مع عبد الناصر، الممتلئ حيوية بجسده الطويل وكتفيه العريضين.

تم تعييني في موسكو، لمرافقة عبد الناصر، وإجراء المباحثات في الكرملين. وعندما توجهنا إلى الكرملين ـ في السيارة ـ تحدث عبد الناصر عن مواضيع مختلفة ومتنوعة حدثني بأنه كان سابقاً يهتم بلعبة كرة السلة، ومن محبي مشاهدة الأفلام السينمائية، أما الآن، ـ فتح يديه باتساع ـ لايوجد لديه وقت لهذه الهوايات. كان أثناء أكثر المباحثات دقة وجدية، ينهج بشكل يأسر الجميع بصراحته وصدقه وابتعاده عن المراوغة والتحايل في الإجابة؛ بل إنه كان يضحك من هؤلاء الدبلوماسيين ويصفهم بـ «أصحاب البناطيل المخططة».

خلال الزيارة الأخيرة التي قام بها ناصر بقصد العلاج، كان رائدا الفضاء أ. نيكولايف، و ف. سفستيانوف، قد حققا رقماً قياسياً في التحليق الفضائي، وكانت تجري مراسيم استقبالهما في الكرملين. ورغم ما كان يعانيه من مرض، فقد أبى عبد الناصر، إلا أن يشارك في مراسيم الاستقبال وقام بتقليدهما أعلى وسام مصري «قلادة النيل».

على العموم كان ناصر، يحمل احتراماً كبيراً ووداً حاراً للشعب السوفياتي، كما كان يقدر الخبرات التي يقدمها الخبراء السوفيات إلى الشعب المصري. وقد حزن حزناً عميقاً عندما نُقل إليه نبأ عن مقتل بعض الخبراء العسكريين والمستشارين السوفيات أثناء إحدى الغارات الإسرائيلية. قال لي بحزن كبير:

- «لقد كنت أعرفهم بشكل شخصي».

ماذكرته كان انطباعي الخاص عن ناصر، إضافة إلى اعتبارات أخرى. فقد كان ناصر يعتبر زعيماً للأمة العربية الكبيرة من محيطها إلى خليجها وقائداً لثورة يوليو. تولى قيادة شعبه في طريق التنمية اللاتبعية وقد ارتبطت باسمه التحولات التي كانت تخدم الطبقة العاملة المصرية. أسس منظمة سياسية هائلة وهي الاتحاد الاشتراكي العربي، عازماً أن يخلق منها حزباً ليسميه «الطليعة الاشتراكية». إن المنطق النضالي الذي كان يتمتع به هذا القائد العربي (والذي يتلخص بالدفاع عن مصالح أبناء شعبه منادياً وقبل كل شيء بالتحرر القومي)، أدى به إلى القناعة المطلقة بضرورة تقوية وتمتين الصداقة الأخوية مع شعوب الاتحاد السوفياتي، وأن يقيم علاقات متينة ومخلصة بين مصر والاتحاد السوفياتي. وبفضل مصر التقدمية تم طرد الإمبريالية الأمريكية من المنطقة، وقدم الاتحاد السوفياتي كل مايملكه من إمكانيات لدعم بلدان المنطقة سياسياً واقتصادياً كي تتمكن شعوب هذه البلدان من الوقوف أمام المخططات الإمبريالية والحفاظ على استقلالها.

كان جمال عبد الناصر، أحد مؤسسي الحركة التي سميت

«حركة عدم الانحياز»، لقد كان شخصية مرموقة في العلاقات الدولية. كان إنساناً وطنياً، قومياً وتقدمياً خسرته مصر.

... في ٣٠ أيلول طارت من موسكو إلى القاهرة، طائرة خاصة من نوع (إيل ـ ٨٦) لحضور مراسم تشييع جثمان الرئيس جمال عبد الناصر، وكان على متنها وفد سوفياتي برئاسة عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، رئيس مجلس الوزراء لعموم الاتحاد السوفياتي، الكسي نيكولايفيتش كوسيغين. ومعه رئيس أركان الجيش السوفياتي مارشال الاتحاد السوفياتي م. ف. زاخاروف، وأنا ـ ممثلاً بالنيابة عن وزير الخارجية للاتحاد السوفياتي. والجنرال ف. ف. اكونوف (المستشار العسكري) وف. ب. بولياكوف (المفوض والقائم بأعمال السفارة السوفياتية في الجمهورية العربية المتحدة).

في هذا اليوم بالضبط تمت موافقة الاتحاد السوفياتي علىاعتمادي سفيراً للاتحاد السوفياتي في القاهرة، لدى حكومة الجمهورية العربية المتحدة خلفاً لسفيرنا الدبلوماسي المحنك س.أ. فينوغرادوف، حيث كان يرأس سفارتنا خلال هذه الفترة في القاهرة قائماً بالأعمال، لعدم تسمية سفير آخر خلفاً له بعد.

هبطنا في مطار القاهرة الدولي، عندما أخذت كتل الظلام تتكاثف ليصبح لونها بنفسجياً غامقاً. أحاطت بالطائرة جمهرة كبيرة من الشخصيات المصرية وأخذنا نهبط على سلم الطائرة بحذر خوفاً من التعثر والسقوط بسبب كثافة الظلام.

الشيء الوحيد الذي كان يبدد الظلام هو وميض الأنوار

المصاحبة لكاميرات التصوير ومصوري السينما، والذي كان يقف إلى جانبهم رجال المخابرات والحرس الخاص. عندئذٍ استطعت أن أميز حالة الهياج والانزعاج والقلق والنرفزة التي كانت تنتشر في ليل القاهرة، وقد انتقلت عدواها لتصيبنا نحن أيضاً. تبين لنا عندما كنا نهبط، أن السادات هو الذي قام باستقبال الوفد السوفياتي (وكان وقتئذ نائباً للرئيس) وإلى جانبه وزير الدفاع محمد فوزي وعلي صبري.

احتضن المصريون أ. ن. كوسيغين وغمروه بدموعهم. في تلك اللحظة قام ضباط الأمن ورجال الحرس الخاص بفتح طريق لنمر من بينهم... ثم نسير خلفهم ليقودوننا إلى سيارة كبيرة وضع عليها رقماً ما خلف زجاجها الخلفي. جلسنا فيها وبعد أن صعد في الكرسي الأمامي شخص ما. انطلقت بنا السيارة. إلى أين؟... «وراء الجميع». أخذت سيارتنا تسير خلف سيارات أخرى وسط الجموع المحتشدة وكأن جميع أهالي المدينة قد خرجوا من منازلهم إلى شوارع القاهرة، بعضهم تعلقوا بالباصات أو عربات الترامواي، يصرخون بشيء ما، وقسم آخر يقوم بحركات إيمائية دليل حزن وأسى، وراح آخرون يرفعون أيديهم إلى السماء وعيونهم باكية.

في هذا المساء نفسه قابل أ. ن. كوسيغين، السادات (نائب الرئيس)، وحرم الرئيس الراحل مقدماً لهم التعازي الصادقة بوفاة عبد الناصر. وبعد عودته طلب كوسيغين، منا تفسيراً:

ـ ماذا كانت تقصد حرم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

بكلامها وبإلحاح «لاتتركوننا»، هل كانت تقصد بـ «نا» زوجة الرئيس المرحوم، أم الحكومة أم الشعب المصري؟

ذهبت إلى وزير الخارجية محمود رياض، ثم إلى رئيس تحرير جريدة الأهرام (وفي نفس الوقت وزير الثقافة والإرشاد) محمد حسنين هيكل ـ الصحفي المعروف والذي كنت قد تعرفت عليه منذ زمن بعيد. كان رياض يبكي. وهو يقول:

ـ ماذا بقي بعد عبد الناصر؟ النظرية، الحزب، الرفاق ـ أصحاب الفكر المشترك ـ يجب أن نتوقع ازدياداً في نشاط الأطراف المعادية لناصر وخطه السياسي، سواء في العلاقات الداخلية أو الخارجية. هل سيستطيع الناصريون الصمود؟

وقال هيكل من خلال دموعه:

ـ لا أكاد أصدق، لاأصدق بأنكم قد جئتم يا أصدقاء ناصر الأوفياء. ها أنه قد مات لتوه، وهذا جميل منكم أن تحضروا فوراً، أن يحضر أصدقاءه الأوفياء أولاً. فمنذ أيام قليلة تحدث إليّ ناصر عنكم. بل إنه تكلم بشكل إيجابي عنك خصوصاً، وأنه سعيد لاستقبالك كسفير للاتحاد السوفياتي هنا في القاهرة.

لم يبق لي مجالاً إلا أن أشير إلى تكليفي فعلاً وفي ظرف غير مناسب كهذا، بمنصب سفير للاتحاد السوفياتي.

.. جاء لحضور مراسم تشييع جثمان الرئيس جمال عبد

الناصر رؤوساء وملوك ورؤوساء وزراء، ممثلون عن رؤساء، وأغلبهم كان يطالب بترتيب لقاء مع رئيس الوفد السوفياتي.

أخبرني الكسي نيكولايفيتش، بأن السادات قد وافق على اعتمادي سفيراً للاتحاد السوفياتي، وطلب أن ينقل إلي رغبته بلقائنا بشكل منتظم، كل يوم اثنين. هذا يعني أنني يجب أن أكون برفقة أ.ن. كوسيغين لكوني كلفت بمهام سفير للاتحاد السوفياتي رسمياً لحضور جميع لقاءاته مع أعضاء السلك الدبلوماسي.

ماكان يقلق الجميع هو أن مصر يجب أن لاتفقد دورها القيادي في المنطقة بغض النظر عمّن سيصبح رئيساً لها. يجب أن تبقى مصر زعيمة للعالم العربي، وعلى هذا الأساس فانه يترتب على الشعب المصري أن ينتخب رئيساً ـ خلفاً ـ بحيث يستطيع أن يكمل ما بدأه عبد الناصر، وهذا هو الطريق الوحيد لعدم سقوط راية قيادة الأمة العربية من يد مصر. الشيء الذي أدهشني أنني لم أسمع أحداً يسمي لي السادات لهذا المنصب اذ بدا أنهم كانوا قد أسقطوه من حساباتهم.

طبعاً حسب الأولوية كان ترتيب السادات في رئاسة الجمهورية هو الأول. ومن بعده حسين الشافعي (أحد القادة القدامى ذو ميول اسلامية متشددة)، وعلي صبري (الذي يعتبر من زعماء «اليسار»)، والدكتور فوزي (الدبلوماسي المحنك)، وزكريا محي الدين (ممثل الجناح اليميني) وغيرهم.

كان ناصر قبل وفاته قد قام بتغيير الكادر القيادي: ـ يقولون

أنه لم يكن يحب أن يبقى إنسان ما في موقعه لزمن طويل تحسباً لعدم تشكيل قوى أو مراكز قوى جديدة، وهكذا فقد تم تكليف السادات بمهام نائب رئيس الجمهورية بالرغم من أنه كان لاينتمي إلى مجموعة السياسيين الذين يتمتعون بسعة الفكر من مجموعة «الضباط الأحرار» الذين تزعمهم عبد الناصر في انقلاب ١٩٥٢ للخلاص من النظام الملكي. هذا الانقلاب الذي ساندته القوى الشعبية بعد نجاحه، اسماه المصريون بالثورة. والمصريون الذين يعرفون السادات بشكل جيد يقولون عنه بأنه كان بمثابة «العنصر المضحك» الذي يضحك منه الضباط الأحرار. وبسبب ضعف ثقافته كان يحاول أن يغطي عليها، باعتماد مايطرحه الأقوى من خلال إمكانياته التمثيلية، وفي نفس الوقت شغفه بالإسلام.

إن انتخاب رئيسٍ للجمهورية هو أدق مرحلة وأكثرها مسؤولية أمام الشعب المصري، ومن خلال الظروف التي تعيشها مصر، فإن شخصية الرئيس تلعب دوراً عظيماً في حياة الشعب المصري، مقارنة بالدور الذي يلعبه ذلك في حياة الدول الغربية، لأن صلاحيات الرئيس حسب تقاليد هذه البلدان هي بلا حدود تقريباً. ومن الواضح أن:

بديلاً في حجم ناصر لايوجد، ولهذا السبب بقيت القيادات السياسية مختلفة فيما بينها لاختيار البديل المناسب لقيادة مصر من جهة، والذي يتناسب معهم جميعاً من جهة أخرى - وتبعاً لذلك أخبرونا بأن:

- «حلاً لهذه الخلافات في اختيار رئيس دائم، اتفقنا على

تسمية نائب رئيس الجمهورية ــ السادات ــ رئيساً مؤقتاً، إلى أن نرى فيما بعد حلاً يوافق الجميع».

وبالفعل أكد لنا السادات بنفسه ما اتفق عليه السياسيون: ـ بتسمية أنور السادات رئيساً. أما منصب رئيس مجلس الوزراء والذي كان يشغله ناصر فقد تم تكليف د. فوزي به. (ممثلاً لمصالح الأطراف البورجوازية في المجتمع المصري)، وتم اختيار علي صبري (عن التجمع اليساري)، وحسين الشافعي (عن التجمع الإسلامي) لمنصب نائب الرئيس. حل كهذا أرضى جميع الأطراف. وذكروا لنا بمرح مثلاً شعبياً «شبعت الذئاب فأصبحت النعاج بأمان».

... الشمس المشرقة في سماء مصر الزرقاء الرائعة، كانت في يوم الأول من أكتوبر (تشرين الأول) ـ اليوم الذي حدد لدفن الرئيس ناصر ـ شديدة الحرارة. ستقوم طائرة مروحية بحمل جثمان ناصر، وستنطلق من الزمالك فوق النيل، حيث كان يقع مركز قيادة الثورة ومنه بدأت الثورة تحت قيادة جمال عبد الناصر، وسيسير موكب تشييع الجثمان بمشاركة الوفود الأجنبية والعربية عبر نهر النيل إلى الضفة اليمنى منه. ثم سيتجه الموكب إلى القسم الشرقي من المدينة كي يصلى على جثمانه في المسجد الجديد، القريب من المنزل الذي كان يعيش فيه ناصر سابقاً.

كان جو القاهرة متوتراً ومكفهراً من شدة الحزن الشعبي، وقد زادت الأيام الماضية من حدة هذا التوتر وماكان يرافقه من قدوم جماعات بشرية هائلة العدد إلى العاصمة، ليملؤوا الشوارع والساحات والحدائق والأرصفة، وأصوات المؤذنين من الجوامع

بصلواتهم ونبرات أصواتهم المتوترة والمؤثرة. كانت القطارات القادمة من مختلف أنحاء مصر، من المدن والأرياف، كانت تكتظ بالناس (الناس الذين لا يجدون أماكن في داخل القطارات كانوا يعتلون ظهور عربات القطار أو يتعلقون على سلالمها وبعضهم كان ينتظر في ساحات المحطات ليتسنى لهم موطئ قدم) كل تلك الجموع القادمة من كل الجهات كانت متجهة إلى مكان واحد، إلى المركز، إلى القاهرة، العاصمة الحزينة، لتزيد عدد سكانها بضعة ملايين أخرى. على الرصيف الموازي لبناء سفارتنا، كانت مجموعة من قوات حفظ الأمن قد كلفت بحماية سفارتنا، من احتمال مهاجمة الجموع البشرية التي امتلأت بها شوارع العاصمة. فكرت لنفسي:

ـ لماذا كل هذه الحراسة المشددة؟ ومن سيقدم على مهاجمتنا!؟

كان يفترض في الجسر المؤدي إلى الزمالك وطرقها أن تكون خالية من الحشود البشرية ليتسنى لموكب الوفود الأجنبية ـ من الناحية الأمنية ـ أن تسير عبره بأمان، لكنه كان مكتظاً بالبشر، وكانت قوات حفظ النظام، تبذل جهداً جباراً بصراخها أو بهراواتها التي كانت تشهرها في وجوه الجموع المكتظة ليفتحوا طريقاً، (ولم أفهم هل كانوا فعلاً يضربونهم بهراواتهم أم فقط لإفزاعهم) على طول الجسر المقام فوق النيل والذي لايتجاوز طوله أكثر من ٤٠ ـ ٥٠ متر.

كلفت القيادة المصرية محمد حسنين هيكل بمرافقة الوفد

السوفياتي في موكب التشييع ولصعوبة اجتياز الجسر، رأيت أن هيكل والوفد المصري المرافق له، أخذوا يتحدثون بالهاتف وبعد قليل تم تأمين زورق، قام بنقلنا إلى الضفة الثانية من النيل وإذا نحن في الموقع الذي يجب أن ينطلق منه موكب الحزن.

... كانوا قد خصصوا لنا مكاناً خاصاً، ولاحظنا أن السادات وعلي صبري لم يكونا عمليين معنا. بين الحين والآخر كان ممثلوا الوفود الأجنبية يأتون لتحية أ. ن. كوسيغين، وعلى سبيل الذكر:

رئيس سوريا (عندئذٍ) ـ الأتاسي، ورئيس قبرص ـ مكاريوس، رئيس السودان ـ النميري، رئيس الجزائر ـ بومدين، رئيس وزراء تركيا ـ سليمان دميريل، إيران ـ حافظ، وعن أفغانستان ـ اتماديه، ملك الأردن ـ حسين، وزير الصحة الأمريكي ـ ريتشاردسون، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ـ ياسر عرفات، ممثل الصين الشعبية ـ هومورجو وغيرهم.

استمعنا إلى هدير محرك الطائرة المروحية، فقاموا باستدعائنا إلى داخل فسحة كانوا قد وضعوا فيها تابوتاً مصنوعاً من الخشب العادي ملفوفاً بعلم مصر وقد ارتمى فوقه مجموعة من الأشخاص علا بكاءهم، بينما راح بعض ضباط الجيش يحاولون إبعادهم. وثمة من كان يقوم بتوجيه بعض الأوامر لإبعاد الناس عن النعش. بعد فترة من الوقت طلبوا من الوفود الأجنبية المشاركة أن تقف في الموكب.

بالطبع خرجنا لنقف في المكان المخصص لنا، وهنا لم يكن

أحد يقوم بترتيب أماكن وقوف الوفود. وضع النعش فوق عربة مدفع وسارت أمامه مجموعة من الجنود محملة بآكاليل الورود ثم تلتها ثلة من الفرسان على صهوات جيادهم ومجموعة أخرى من حرس الشرف، ثم تلك المجموعة التي كانت تبكي، وكان ترتيبنا في مقدمة الوفود الأجنبية، وأحسست بأن أشعة الشمس المحرقة، قد زادت من توتر الجو وأصبح مشحوناً إلى درجة صرت أتوقع أي شيء، وصار جسدي يضخ عرقاً غزيراً، وكتل من الغبار صارت ترتفع لملاقاة الشمس.

كانت الترتيبات أن تسير الوفود الأجنبية ـ مباشرة ـ وراء عربة المدفع المسجى فوقها جثمان ناصر. لكن من بقي ملتزماً بالترتيبات!؟...

لم يكن هناك مجال لهذه الاعتبارات، فشدة الزخم الشعبي، والضغط الجانبي كانت تتقاذف موكبنا وشعرت أن دفعة جانبية قد أبعدت ا.ن. كوسيغين عنا، ودفعت به بعيداً إلى الأمام، ثم دفعة أخرى وإذا أنا وسط دوامة وقد ظهر أمامي وجه دميريل المذعور، وحافظ واتماديه، ودفعة أخرى أبعدتهم عني وأنا أحاول أن أثبت قدمي بالأرض متجنباً الجموع البشرية التي كانت تضغط من الجانبين، ثم كان الضغط القادم من الخلف، ليدفعنا إلى الأمام، وتمكنت من الحفاظ ـ أمامي ـ على فسحة محاولاً أن لا اصطدم بظهر الوفد التركي والأفغاني والإيراني.

أصبح الموكب الجنائزي يسير دون انتظام وبفوضى: ـ يتدافع من اليمين إلى الشمال يتقدم، يقف، ترافقه صرخات البكاء

والعويل. ها قد توقف الموكب مرة أخرى، الصراخ يزداد، بعض الجموع البشرية تسير عكس اتجاه الموكب ومباشرة إلى النعش، يُطلب إليهم التفرق، لكن أين سيتفرقون!؟... فوراءهم دفعات ودفعات من السيل البشري، وها هم يرفعون فوق أيديهم مقعداً جلس فوقه السادات مغمضاً عينيه وكأنه فارق الحياة!

ـ ماذا حدث للرئيس الجديد!!؟، أقف مكاني. يبدو أن الاستمرار في التقدم أصبح غير مأمون، المرافقون قاموا بنقل الجماعة التي كانت تسير باكية خلف النعش. وراء الجسر كانت جموع بشرية هائلة ملايين، ملايين من البشر، أمر لايصدق...

جاء أحدهم بمقترح:

ـ من الخطر على الضيوف الأجانب أن يتقدموا أكثر من ذلك.

عندما أخبرت كوسيغين بحال السادات استغرب ذلك وطلب من نائب رئيس قسم البروتوكولات في وزارة الخارجية ب.ل. كولاكولوف، ان يستوضح الأمر.

أخبره المصريون، وطلبوا أن يكون هذا سراً:

ـ بأن علي صبري قد أصابه الإغماء، عندما بدأ موكب جثمان الرئيس بالسير. وعندما اكتشف السادات غياب علي صبري ـ نائب الرئيس ـ عن الموكب، شعر بأن وضعه الصحي قد أصبح سيئاً ـ هو أيضاً ـ....

الإصرار الذي واجهنا بضرورة مغادرة الموكب والذهاب إلى

مقر إقامتنا ـ بصراحة ـ أثار شكوكنا. وبعد جدال طويل سمح المصريون وبتثاقل لكوسيغين فقط بزيارة السادات وعلي صبري. كانا مستلقيين في غرفة واحدة وهما ينظران إلى بعضهما البعض وكأنهما قد تدبرا أمراً ما... وشكراه على اهتمامه بهما.

في اليوم الثاني (١٢ أكتوبر) ـ حضرت القيادة المصرية لقاء عمل مع الوفد السوفياتي، وأريد أن أثبت بعض الملاحظات:

قام الجانب السوفياتي مؤكداً (مجدداً) بأن موقفنا من تطوير ودعم التعاون مع مصر سيبقى كما كان دون أن يتغير فيه أي شيء، ونحن نريد أن تبقى علاقاتنا قوية وثابتة وصادقة كما كانت في أيام ناصر، وبالطبع على أن يقابلنا الجانب المصري بالمثل. وقد عبر أ. ن. كوسيغين عن قناعته بأن القيادة الجديدة ستستطيع أن تنتصر على أعداء مصر، بالرغم من أن غياب ناصر قد خلق فراغاً في قيادة البلد من حيث الفكر واتخاذ القرار.

في إجابة السادات، لكوسيغين أشار أكثر من مرة إلى أن ناصر كان بمثابة صديقه وأخاه ومعلمه، وأن القيادة المصرية لن تسمح بقيام صراع داخلي، وأكد على استمرار الصداقة مع الاتحاد السوفياتي ـ على خطى ناصر ـ بل أنها ستتوثق وتصبح أكثر متانة. كما تم التطرق إلى بعض الأسئلة التي تهم علاقاتنا مع مصر ـ والإشارة إلى الاستفادة من الدعم السوفياتي لحل جملة المشاكل التي تعترض مستقبل مصر.

بعد مضي يوم آخر سافر الوفد السوفياتي عائداً إلى موسكو.

وقبل العودة بالطائرة وبعد أن حزمنا حقائبنا وكنا بانتظار تحديد زمن الاقلاع ونحن جالسين «في الشرفة» انحنى أ.ن. كوسيغين إلى ناحيتي قائلاً:

ـ لا أعتقد أن خدمتك في هذا البلد ستكون سهلة، لأن مستقبله ليس واضحاً تماماً. ادرس الوضع بشكل أكثر عمقاً، كي تكون المعلومات التي ترفعها لنا أكثر دقة. من الواضح أن مصر تمر الآن بمرحلة انتقالية، مع ذلك أتمنى لك التوفيق في مهتمك والنجاح...

ومد يده إلي مصافحاً ـ صافحت يده متسائلاً:

ـ ماذا..! ألن أعود معكم بالطائرة ـ الآن ـ إلى موسكو؟

ـ إلى موسكو..؟ ـ أعاد كوسيغين تساؤلي ـ لماذا؟ ـ ثم أضاف مازحاً ـ لقد كلفت بأن أصطحبك معي إلى القاهرة، ثم أن أقدمك إلى القيادة المصرية الجديدة والتي وافقت فوراً على قبولك سفيراً لبلادنا. أعتقد أنه لامعنى لعودتك معنا.

أجبته معترضاً:

ـ لقد جئت معكم دون أن أصطحب معي حاجياتي. كما أن مجيئي لم يكن من خلال القناة الدبلوماسية المتعارف عليها وسياسياً لن يكون تصرفنا هذا جميلاً أو مقبولاً.

ـ سياسياً؟ ـ أعاد كوسيغين تساؤلي ثانية ـ وما هو الشيء السياسي غير المقبول أو غير الجميل؟

ـ سياسياً، أقصد به وكأننا قد رمينا بسفير جديد على رقاب

المصريين، يمكن أن يعتبر شيء من الغلاظة، لقد حصلتم على موافقة اعتمادي كسفير من الجانب المصري. سأعود معكم إلى موسكو الآن، وبعد أربع أو خمس أيام سأحضر إلى القاهرة حسب الأعراف الدبلوماسية المتبعة بصفتي سفيراً مزوداً بأوراق اعتمادي. المصريون كشعوب الشرق قاطبة، تعودوا على مراعاة التكلف من خلال مراسيم التشريفات. كما أن السفراء الآخرون، سيدهشهم ظهور سفير سوفياتي جديد بهذه الطريقة البعيدة عن العرف الدبلوماسي.

أجابني أ.ن. كوسيغين:

لقد فهمت ما تقصد، وأوافقك على هذا الرأي، لكن يجب أن أحصل على موافقة قيادتنا. سأتحدث إليهم الآن بالهاتف. وسأنقل إليهم رأيك وسأقول لهم بأنني أشاركك الراي...

طبعاً، لم أكن أتوقع أن تظهر أية تعقيدات من موسكو، فبعد أن أنهى أ.ن. كوسيغين مكالمته الهاتفية قال:

حسناً ستعود معنا إلى موسكو.

كانت الرحلة إلى القاهرة لحضور مراسيم تشييع جثمان عبد الناصر، قد تركت لدي انطباعاً قلقاً وغير مريح: «فالقادة المصريون كانوا يتحدثون ـ وهم غير واثقين ـ عن مستقبل بلادهم، عن سياستها، تخطيطها، وعن نواياهم. كما أنني لمست عدم احترامهم لرئيسهم الجديد، كما هو واجب ومتبع.

في ١٣ أكتوبر (تشرين الأول)، عدت إلى القاهرة ومعي زوجتي بصفتي مفوضاً فوق العادة وسفيراً لاتحاد الجمهوريات

السوفياتية الاشتراكية لدى الجمهورية العربية المتحدة. وكان في استقبالي، تلك الوجوه التي تعرفت عليها من العاملين في سفارتنا: مستشار السفير فلاديمير بولياكوف، المستشار فاديم كيبرجينكو، الكسندر تاتارين، نيكولاي راينسكي، فاديم سينلينكوف، الكسندر أرلوف، بافل أكوبوف، الملحق العسكري اللواء البحري نيكولايف ايغلايف. لقد تقصدت أن أذكر أسماء هؤلاء الرفاق المخلصون الأخصائيون الممتازون، إضافة إلى مجموعة الدبلوماسيين الشباب أمثال: يوري كابرالوف، فافا غوليزاده، روبرت تورديييف، الذين شكلوا العمود الفقري لسفارتنا، وقاموا بتنفيذ الأعمال الصعبة في زمن صعب وكانوا يجتهدون بالقيام بها على أحسن وجه، خلال الأعوام اللاحقة والتي توضح من خلالها مدى انحراف سياسة السادات عن الخط والنهج الناصري، الذي اتبعه سواء على صعيد السياسة الداخلية أو الخارجية.

(٢)

في البداية لجأ السادات إلى تأجيل استقبالي، كي أقدم له أوراق اعتمادي من خلال مراسيم التشريفات الدبلوماسية المتبعة، وكما هو معروف وحسب العرف والبروتوكولات الدبلوماسية المتبعة: إنه كلما سرّع رئيس الجمهورية بقبول أوراق اعتماد سفير دولة ما بعد وصوله إلى البلد الذي يمثل دولته فيه، كلما أصبح واضحاً للجميع بأن العلاقة بين دولته والبلد الذي يمثله السفير هي علاقات جيدة وممتازة. وبهذا فقد قدم السادات دليلاً مغايراً لتصوراتنا.

حاول كل من نائب الرئيس ووزير الخارجية اقناعي بأن لا أعير هذا التأجيل أي اعتبار ودعياني إلى أن أقوم بعملي:

- اعمل وبكل قوتك كمفوض فوق العادة وكسفير لبلادك.

لكن حدسي النفسي كان يقول لي شيئاً آخر:

- يجب أن نضع النقاط فوق الحروف ومنذ بداية تعاملنا.

أثناء مقابلتي بالصدفة في المطار لنائب الرئيس علي صبري، قلت له مباشرة:

ـ لا أستطيع أن أمارس مهامي الوظيفية مادمتم لم تقوموا بعد بإجراء مراسيم التشريفات اللازمة لإعتماد أوراقي كسفير للاتحاد السوفياتي، تنفيذاً لقرار مجلس السوفيات الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية.

بعد مضي يوم واحد من حديثي هذا مع نائب الرئيس، تم إعلامي بأن الرئيس جاهز لقبول أوراق اعتمادي.

عندئذٍ، كانت مراسيم التشريفات بسيطة، بل أنه لم تكن هناك بعد عادة تبادل الكلمات، بالرغم من ذلك فإن القاعة التي كان يتم قبول أوراق اعتماد السفراء فيها (في قصر القبة ـ مكان الإقامة الرسمية لرئيس مصر)، كانت مكتظة بالدبلوماسيين ومصوري الصحف ومراسلي الصحافة والتلفزيون والسينما. وقد تقصدت استغلال هذا التواجد الإعلامي- لألقي كلمة مرتجلة، تحدثت فيها عن العلاقة الأخوية بين الاتحاد السوفياتي والصديقة مصر. وعن محبتنا وودنا واحترامنا العميق للشعب المصري وحضارته، وثقتي الكبيرة بأن العلاقة والتعاون المشترك بين بلدينا سوف يستمر وسيثمر لخير البلدين، كما كانت في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، مؤكداً بأن بلدنا جاهز ومستعد لتقديم الدعم والمساعدة في مختلف المجالات للصديقة مصر وقيادتها.

الكلمة الجوابية التي رد بها الرئيس السادات على كلمتي كانت تحمل نفس المعنى حول التعاون والصداقة ـ أيضاً.

بعد ذلك اتجهت بلباسي الرسمي إلى ضريح جمال عبد الناصر، حيث كان قد اجتمع حوله جميع موظفي سفارتنا، وقمنا

بوضع اكليل من الورود عليه شريط أبيض وقد كتبنا عليه باللغتين العربية والروسية:

«إلى جمال عبد الناصر، من سفارة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة». وقد لفت ذلك انتباه الصحافة والتلفزيون وقد جرت هذه كعادة فيما بعد بأن يتقدم أفراد السلك الدبلوماسي بأكليل من الورد إلى ضريح ناصر.

يقف الإنسان مندهشاً أمام الحضارة المصرية القديمة ومنجزاتها، الآثار والتماثيل التي مازالت بوضع سليم حتى يومنا هذا. وقد كُتِبَ الكثير من المقالات عن هذه الأعجوبة التاريخية، ويمكن أن يكتب في المستقبل أكثر. ولهذا السبب بالرغم من أن الرغبة تحدوني أن أقاسم هؤلاء المعجبون، إعجابي بهذا العمل، لكن ما أريده هنا هو أن أشير فقط إلى أن ما أثار استغرابي أكثر من كل شيء أن بعض المصريين المعاصرين لايشعرون بأنفسهم بأنهم ورثة لهذا التاريخ العظيم، بل ان الكثير منهم يفتخر فقط، بأنهم يعيشون في بلد عاشت فيه، في زمن مضى، مخلوقات غير اعتيادية، وقد استطاعوا أن يجذبوا انتباه العالم إليهم. ويقول بعض العرب المصريين بأنهم كانوا ـ مخلوقات من كواكب أخرى وقد صدرت كتب تتحدث عن ذلك.

ومن جملة ما جعلني أشعر بحالة من الدهشة أمور أخرى: ـ الإحساس الواضح لدى المواطن المصري وحتى أكثرهم بساطة هو شعورهم بأنهم أسياد بلادهم، ويظهر ذلك من تمسكهم بأسلوب الآداب العامة الرسمية وأحاديثهم الودية، وحبهم للصداقة

والإخلاص وعدم الخبث، وحسن ضيافتهم وتفاؤلهم وعزتهم ومقدرتهم على تحمل سنوات العجاف إلى جانب احتفاظهم بجمال النكتة والروح المرحة في أصعب اللحظات وليس من العبث عندما يمزحون بقولهم:

ـ إن سبب اندحار نابليون عن مصر هو كثرة النكات والنوادر التي أطلقها عليه المصريون...

على العموم بدأ المصريون بإطلاق النكات على الرئيس السادات، فور استلامه منصب رئاسة الجمهورية ومن إحدى النكات:

ـ «استقل الرئيس الجديد سيارة المرحوم جمال عبد الناصر، وعند مفترق أحد الطرق توقف السائق واستدار ليسأل الرئيس: ـ إلى أين أتجه؟ إلى اليمين أم إلى اليسار؟. فسأله السادات بحب استطلاع ظاهر: ـ إلى أين كان ناصر يتجه؟. أجابه السائق: ـ إلى اليسار. رد عليه السادات:

ـ حسناً، أعط إشارة اليسار.. و... اتجه نحو اليمين..». طبعاً كان يطيب لنا المعاملة اللطيفة، المحملة بالصداقة التي يقابلنا بها أبناء الشعب المصري وبشكل خاص، هؤلاء الذين كانوا على علاقة مع الخبراء السوفييت في العمل الانشائي الجبار الذي كانوا يقومون بإنجازه في سد أسوان، ومحطة التوليد الكهرمائية وإعادة بناء مجمع صهر الحديد في حلوان، القريب من القاهرة، وفي المصانع والمعامل الأخرى والقطاع الزراعي وطبعاً في قطاع الجيش.

.. كان سد أسوان يبدو من الطائرة صغيراً، على شكل

نصف دائرة محدباً، قد تم رسمه على هذه الرقعة الهائلة المساحة الصفراء بطبيعتها الصحراوية ذات الحرارة القاسية، وقد احتجز خلفه مساحة ذات لون أزرق هائلة الحجم تسمى «بحيرة ناصر». ومن الجهة الأخرى للسد كان يخرج منه خيط رفيع هو نهر النيل العظيم. الاحتفال الرسمي بانتهاء الأعمال في بناء جسم السد والمحطة الكهرمائية والتي كانت وقتئذٍ تؤمن نصف احتياجات القارة الأفريقية من الكهرباء، كان قد تم في شباط ١٩٧١ . عندئذٍ كان جو الاحتفال مفرحاً، فقد نشرت الأعلام واليافطات واللوحات، والفرقة الموسيقية تعزف أناشيد وطنية، وأقيمت الندوات. فالمنشأة التي حاولت أمريكا وألمانيا الغربية أن تمنع أو تعرقل قيامها قد تم إنشاؤها وتحقيقها فعلاً بمساعدة الاتحاد السوفياتي الصديق المخلص للعرب.

لقد تبنى ناصر سياسة التعاون والصداقة الحميمة مع الاتحاد السوفياتي، لم يكن بناء سد اسوان العظيم دليلاً على عمق التعاون الاقتصادي وحكمة ومقدرة ناصر على اتخاذ القرار وحسب، بل على الخط السياسي الذي قرر نهجه.

تم افتتاح المحطة الكهرمائية والسد في عهد السادات. كانت قد وضعت يافطات ولوحات علىجسم السد بمناسبة هذه الذكرى، دون أن يتم ذكر اسم الاتحاد السوفياتي، في أي يافطة أو لوحة من هذه اللوحات: ـ «بإرادة الله وبمساعدة أصدقائنا، أقمنا السد العالي، وقد قام الرئيس السادات بافتتاحه». من هم هؤلاء الأصدقاء الذين ساعدوا الشعب المصري؟؟.. ـ دع الأجيال القادمة تحزرهم أو أن تبحث عنهم.

لكن ما تمت مشاهدته هو التحية الحماسية من الحضور المصري للخبراء السوفيات، الذين شاركوا في عملية البناء، ساعة تواجدهم في حفل الافتتاح. فقد كانوا يعرفون جيداً بأن الاتحاد السوفياتي، هو الذي قدم لهم هذا المصدر الهائل المنتج للطاقة الكهربائية الرخيصة، لإنارة منازلهم، لتشغيل معاملهم ومؤسساتهم الصناعية، أنقذهم من مشاكل الفيضان الذي كان يخلفها النيل عبر العصور السحيقة، وبالمقابل تأمين المياه اللازمة لسقاية محاصيلهم الزراعية، ضمان الثروة السمكية ومصادر الصيد، رفع مستواهم الهندسي وتدريب كادرهم... كذلك كان استقبالهم الحار للخبراء السوفيات في الاسكندرية، أثناء افتتاح الترسانة المخصصة لبناء وإصلاح السفن بمساعدة الاتحاد السوفياتي، وقد قاموا بهذه المناسبة الاحتفالية بتسيير سفينة بحرية مصرية.

كان أفراد الشعب المصري قد تجمعوا في الساحات، واعتلى بعضهم أعمدة الهاتف والنور. وحسب العادات التقليدية، جاؤوا بعجل سمين وقام العمال بذبحه، ثم غطسوا أيديهم بالدم وقاموا بطباعتها وهي مدماة فوق جسم السفينة دلالة ابتهاجهم واحتفالهم بهذه المناسبة العظيمة.

...إحدى القضايا أو الاهتمامات الأولية لأي سفير جديد ـ هي إقامة علاقات وتعارف مع الشخصيات المحلية ورؤوساء البعثات الدبلوماسية. وهذا يعني استقبالات وزيارات مكثفة، ثم رد هذه الزيارات. إنه جهد عظيم لايستهان به.

لكن العمل لايمكن تأجيله، بل لايحتمل التأجيل مطلقاً

فالأسئلة والمشاكل لايمكن تجاوزها بل تحتاج إلى حلول ومتابعة يومية، لأنها تظهر بشكل يومي وبالتالي لايجوز اغفالها لأهميتها.

وبمقدار ما كان حجم العمل التعاوني الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي لمصر، فإن عدد الخبراء السوفيات الذين كانوا يعملون في مختلف أوجه ونشاطات القطاع الاقتصادي كان كبيراً ومتنوعاً: (كانت مصر تعتبر أكبر تجمع سوفياتي خارج الاتحاد السوفياتي)، فإلى جانب السلك الدبلوماسي والعاملين في الملحقية التجارية كان هناك الخبراء: في مجال البناء، في مجال إنتاج وتصنيع القطن، إضافة إلى ذلك عسكريون، مدربون لفن البالية، جيولوجيون، طلاب يدرسون الإسلاميات في «الأزهر»، أطباء، مدرسون في الجامعات، خبراء في بناء السفن، صهر الحديد، نفطيون، خبراء في بناء المرافئ، بحارة، معلمون، صحفيون، فنانون في السيرك، مدربون رياضيون.. إلى آخره من الاختصاصات. وجميع هؤلاء كان لهم مشاكلهم وهمومهم سواء أكانت كبيرة أو صغيرة فالجميع كانوا يطلبون المساعدة والمشورة.

وعلى ذكر التعارف، فقد تعرفت على أغلب أعضاء القيادة المصرية - نائبا رئيس الجمهورية: علي صبري وحسين الشافعي ورئيس الوزراء: الدكتور فوزي (أحد السياسيين القدامى منذ عهد الملك فاروق)، وزير الخارجية: محمود رياض، وزير الدفاع: محمد فوزي، رئيس التجمع الوطني: لبيب شقير وسكرتير اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي، ووزير الداخلية: شعراوي جمعة، ووزير الدولة: سامي شرف (عملياً رئيس الاستخبارات ومكافحةالتجسس) وغيرهم من الشخصيات السياسية. تعرفت

إليهم بسرعة، لقد كانوا من المقربين إلى عبد الناصر، وتعود معرفتي بعضهم إلى سنوات مضت. ففي السنوات الأخيرة من حياة عبد الناصر، كان قد كلفهم عدة مرات بالسفر إلى موسكو، لإجراء المباحثات مع الجانب السوفياتي، وقد استطعت أن أقيم معهم علاقات عملية وجيدة. إلا أن هذه العلاقات، كانت غير كافية لفهم الوضع بشكل جيد في مصر، لأن الرئيس في هذه الدولة له الدور الأكبر في إدارة الدولة، بغض النظر عن أن السادات كان قد وعد أ.ن. كوسيغين وأنا معه بأنه لن يحدث أي تغير في العلاقات بين البلدين، بل على العكس ستزداد وستصبح أكثر متانة مع الزمن.

إلا أن الوضع سرعان ما تغير مع مجيئ الرئيس الجديد. فلم يعد هناك صفاء نية ولاثقة في العلاقات، عكس ماكان عليه الوضع في حكم ناصر، بل ظهرت عوضاً عنها ـ كما أشرت سابقاً ـ شكوك الرئيس الجديد، وقد أخذ يعبر عنها بشكل واضح ومتعمد، محاولاً أن يتذرع بأوهى الأسباب والتي لاتخطر على ذهن أحد.

طبعاً كانت مواقفه هذه غريبة وغير مفهومة من طرفنا. بالرغم من ذلك فإن الجانب السوفياتي بقي محافظاً على علاقاته، دون أي تغير يذكر في حسن نواياه وموقفه السياسي من القضايا الأساسية التي تهم مصر. هل يعني هذا أنه قد حدث تغير في سياسة الرئيس الجديد؟... لم يكن من السهل إعطاء جواب مباشر، على هذا السؤال لأن الشخصيات السياسية التي كانت في زمن ناصر، قد أبقاها الرئيس الجديد في مواقعها القيادية، وكانت هذه

الشخصيات ماتزال تثمن العلاقات المصرية ـ السوفياتية وتؤكد على استمرارها.

بعد مرور شهرين ـ إلى ثلاثة أشهر، صرنا نسمع من بعض هذه الشخصيات ـ في الحقيقة كان عددها كبيراً ـ ماكان يردده السادات وبعناد، من ملاحظات واتهامات لا أساس لها، موجهة إلى الاتحاد السوفياتي وبشكل خاص في القضايا والتجهيزات العسكرية. وفجأة ظهرت في إحدى الصحف مقالة عن «عدم كفاية» التوريدات السوفياتية، وأحياناً بعض التعليقات والملاحظات باسم «بعض الخبراء» المجهولين.. تتحدث عن المستوى الرديء للتكنولوجيا السوفياتية، التي يقوم الاتحاد السوفياتي بتوريدها إلى مصر. وأحياناً عن النتائج التي وصل إليها «الكومبيوتر»: ـ بأن الاتحاد السوفياتي هو المستفيد الوحيد من «حالة اللاحرب واللاسلم» مع إسرائيل.

هذه التعليقات أدت إلى إضعاف ثقة الشعب المصري بنفسه من جهة، وبأصدقائه من جهة أخرى. كما ألقى ظلاً من الشبهات على الصداقة المصرية ـ السوفياتية، ونوعية السلاح الذي كان يمدهم به الاتحاد السوفياتي. وقد ساهم أعداء مصر بترويج هذه الدعايات بالرغم من علمهم ومن «مصادرهم الخاصة»، بأن الاتحاد السوفياتي يدعم الشعب المصري ويقوي من وسائل دفاعه العسكرية، لتكون على أرفع المستويات التكنولوجية ـ العسكرية.

وصار واضحاً ـ بعد فترة ـ أن هناك خلافاً كبيراً بين السادات من جهة والقسم الأعظم من المسؤولين البارزين في قيادة الدولة،

ومن جهة ثانية مع القيادين في الاتحاد الاشتراكي العربي، والذي كان يشكل القوة التنظيمية الوحيدة في مصر ذات الطابع الايديولوجي التقدمي في ذلك الوقت. وقد حاول الرئيس أن يقلص من شخصياتها ويقلل من أهميتها. إذا كان ناصر يحلم ويطمح أن ينمي الاتحاد الاشتراكي ويطوره ليصبح حزباً سياسياً «الطليعة الاشتراكية»، فإن السادات قد سرّع بالأمور المؤدية إلى تعطيله وشله، مدركاً بأنه لن يستطيع أن يكون صاحب السلطة المطلقة في إصدار القرارات من خلال اللجنة التنفيذية العليا للتجمع الاشتراكي، والتي كانت قد تعودت أثناء حكم ناصر على أن يكون القرار جماعياً، وأن تكون القيادة السياسية قيادة جماعية.

وهكذا ولدت لدى السادات فكرة الاتحاد بين مصر، سوريا وليبيا في دولة عربية، وأن يكون شكل الاتحاد فيدرالياً. وبالطبع أن تكون قيادة هذا الاتحاد لمصر، وقد خطى خطوة عملية في هذا الاتجاه. إن هذه الفكرة المتسرعة والخطوات التي قام بها السادات دون مناقشة أعضاء القيادة في مصر، كانت عملياً مثار هزء وسخرية في اجتماع اللجنة المركزية لقيادة الاتحاد الاشتراكي العربي. تطلب الوضع عقد المؤتمر الأول في تشرين الثاني ١٩٧٠ . عندئذٍ كانت اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي تتألف من الأعضاء الذين تم انتخابهم عندما كان ناصر مايزال حياً.

عقد المؤتمر في قاعة المحاضرات، بجامعة القاهرة. كان الحضور كبيراً وقد ارتدوا لباساً عادياً بسيطاً. وكانوا يتصرفون بطلاقة ودون تكلف، وهم يدخنون سكائرهم وقد تشكلت سحب

كثيفة من الدخان فوق رؤوسهم، ويسطع أحياناً في جهة ما وميض قوي لكاميرات السينما والتلفزيون. هذه الحالة كانت تذكرني بحضوري للاجتماعات الخاصة بممثلي الشعب.

في تموز ١٩٧١ ، اختلف الوضع. إذ أن الحضور إلى مؤتمر الاتحاد الاشتراكي، ارتدوا ثياباً رسمية، حسنة الهندام وبدا عليهم شعور من الرضى، ونادراً ما كنت ترى أحدهم بلباسه الشعبي البسيط أو «بشكله الشعبي».

مادار من أحاديث في هذا المؤتمر كان كالحديث الذي دار أثناء المؤتمر الذي سبقه ـ كلمات إطراء وتبجيل للنهج الناصري، ضد المعادين للناصرية والسادات وبالطبع كانت الكلمات تقريباً فارغة من مضامينها، علماً بأن المؤتمر كان منعقداً من أجل إقرار برنامج النشاط القومي، الذي كان عزيز صدقي والزيات (كانا يقودان الاتحاد الاشتراكي) قد قاما بإعداده بشكل جيد.

قام السادات بإلقاء الخطاب الأساسي (إنه خطيب ماهر)، فقد كان طوال الوقت يقوم بحركات تعبيرية (إنه ممثل رائع)، بعد أن أبعد جميع الأوراق (البرنامج) التي كانت أمامه. لكن كان من الصعب أن يستمر بخطابه، دون أن يتحدث عن برنامج الاتحاد الاشتراكي ودون أن يعود لقراءة التقرير الذي كان قد أبعده من أمامه متعمداً. عندئذٍ صمت طويلاً ثم تناول التقرير والذي كان قد سقط قسم من أوراقه من فوق المنبر على الأرض، وأخذ ينظر إليه بشكل بليد، ثم بدأ يقلب أوراقه من طرف لآخر بين يديه وكأنه

يستعرضها وبشكل هزلي متقصداً أن يهزأ من البرنامج المقدم للمؤتمر.

طبعاً كان معروفاً بأنه ليس راضياً عن البرنامج القومي المقدم للمؤتمر لإقراره، لأن البرنامج كان يتضمن نقاطاً لم تكن لترضى الرئيس ومنها: تقوية وتدعيم قطاع الدولة (القطاع العام)، في المجالات الاقتصادية والخدمية، وغيرها من المقترحات التقدمية. أخيراً.. تمتم السادات مغمغماً: ـ بما أن التقرير المقدم إلى المؤتمر قد تم توزيعه على الحضور فلا داعي لأن يقوم بقراءته (؟!). على العموم تم (عندئذٍ) اعتماد البرنامج المقدم إلى المؤتمر إلا أن السادات سارع فيما بعد باستبداله ببرنامج آخر قام بإعداده مساعدوه الجدد، بعد حملة دعائية شديدة، وكأنه المنقذ والمخلص من جميع المصائب ـ كان البرنامج الذي اعتمده السادات هو برنامج «الباب المفتوح» ـ أو كما صار دارجاً في الأحاديث السياسية «الانفتاح» ـ أمام الرأسمال المحلي والرساميل الخارجية.

دعونا نعود إلى إحداث نهاية ١٩٧٠ وبداية ١٩٧١ . السياسة يصنعها رجال معنيون ثم يمارسونها في حياتهم العملية. ففي بداية عهد السادات (على مايبدو)، كان يقف في وجه سياسته، تلك العناصر التي كانت تحتل مراكزاً قيادية في زمن ناصر، و المكلفين بسكرتارية تنظيم الاتحاد الاشتراكي، سواء في القاهرة أو في المدن الأخرى الكبيرة وبالرغم من أن هذه المجموعة لم تكن متجانسة، كما أنها لم تكن متلاحمة تنظيمياً، فقد كانت تتكتم على مسعى الرئيس لفرض إرادته الشخصية (على قرارات

التنظيم)، عن المقربين إليه، هؤلاء الذين لم تساورهم الشكوك بعد في سلوكه. وإن أكثر هؤلاء الرجال الذين كانوا يشكلون خطراً على السادات هو علي صبري، نظراً لما يتمتع به من ثقافة عالية وافق سياسي واسع مقارنة بالسادات.

في ٢٨ آذار ١٩٧١ ، أصدر السادات قراراً رئاسياً ـ دون أن يقدم شرحاً أو تبريراً لقراره هذا ـ بعزل علي صبري من منصب نائب الرئيس. وكان قد أعلمني بذلك قبل أن يصدر قراره بعدة أيام، محاولاً أن يستشف موقفنا من قراره.. وقد أشرت عندئذٍ بأنه: ـ يصعب التعليق على الخبر الذي سمعته من السيد الرئيس. الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه هو تذكيركم بأمنياتنا الطيبة لكم كاصدقاء، والتي أعرب عنها أ.ن. كوسيغين منذ نصف عام مضى عندما قال للقيادة المصرية: ـ بضرورة توحيد الجهود والتعاون مع بعض، للابتعاد عن خطر الانقسام. أجابني السادات بحدة، **بأن ما أعلمني به هو قرار قد قام باتخاذه.**

في الوضع الداخلي: ـ (تطوير القطاع الصناعي، الزراعي، النقل والمواصلات، الوضع الثقافي، السكن، تحسين الأوضاع المعيشية للمواطن المصري) ـ لم يكن السادات ليهتم به عملياً، بل كان كل اهتمامه محصوراً بالسياسة الخارجية، وقبل كل شيء ـ الصراع مع إسرائيل.

كان السادات يعتبر نفسه خبيراً حربياً فذاً، لكنه غالباً ما كان يردد ما يلقنه إياه جنرالاته من معلومات عسكرية... وبالرغم من أنني قد اقترحت عليه عدة مرات، أن يدرج في تقريره ما يتقدم به

المستشار العسكري السوفياتي الأول، من نصائح لكنه لم يكن ليستمع إلي.

إن تباين وجهات النظر، أخذت تشتد بين السادات وبعض الشخصيات القيادية. ليس بخصوص السياسة الداخلية فقط، بل حول سياسته الخارجية أيضاً فبعد استلامه لمنصبه، سارع السادات وبشكل منفرد دون أن يستشير أحداً من أفراد القيادة بإطلاق شعار غريب... «سيكون عام ١٩٧١ عام الحسم!» عام الحسم الذي ستعيد فيه إسرائيل لمصر الأراضي التي كانت قد احتلتها في عدوانها عام ١٩٦٧. عملياً وكأنه ـ السادات ـ قد أعلن مبكراً عن نية مصر في محاربة إسرائيل خلال عام ١٩٧١ . إلى جانب ذلك يمكن اعتبار هذا الشعار بمثابة عملية ابتزاز واضح للجانب السوفياتي.

ـ «لقد طرحت هذا الشعار، ويجب على الاتحاد السوفياتي أن يساعدني لتحقيقه».

قالوا له:

ـ «إن الاتحاد السوفياتي ـ صديق لمصر، ولهذا نريد أن نعرف هل هناك خطط واضحة لها علاقة (بعام الحسم)، وهل تم دراسة هذه المخططات بشكل جيد؟ وماهو مستوى القوات المسلحة المصرية؟ وغير ذلك..

أجابهم السادات بزعل واقتضاب:

ـ «الشعار، هو شعار سياسي وما تبقى هو من اختصاص

رجال الحرب... العسكريين» وأذكر أن هيكل، حدثني في تلك الأيام:

- «لم يحدث شيء كهذا في التاريخ مطلقاً، أن تُصرِّح دولة ما أو ترسل خبراً عمومياً بأنها ستشن على عدوتها حرباً في السنة الفلانية. إما أن يكون هذا كلاماً غير جدي أو أن يكون... - جريمة».

لكن بالرغم من ذلك فإن المصريين - ربما كانوا - قد تأقلموا مع هذا الشعار أو... أنهم تجاهلوا سماعه، فما أكثر الشعارات التي كانت تطلق..!

اشتدت حدة تباين وجهات النظر في وسط القيادة المصرية بسبب طبيعة العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية. ففي زمن ناصر، كان قد تم طرد الإمبريالية الأمريكية من منطقة شرق المتوسط. والآن قد صار واضحاً للقيادة، ان السادات قد أقام خطاً - من العلاقات السرية - مع الأميركان، دون أن يفصح أو يخبر عن طبيعة هذه العلاقة، للذين يشاركونه في قيادة مصر. وأن علاقته هذه مع أمريكا، قد تمت من خلال عملاء المخابرات المركزية الأمريكية في القاهرة، والذين كانوا يعملون تحت تسمية مشبوهة «قسم الدفاع عن المصالح الأمريكية»، لدى السفارة الإسبانية، حيث كان قد تم رفع العلم الإسباني فوق بناء السفارة الأمريكية، وقد بقيت هناك مجموعة من الأمريكيين لتقوم بعملها، بعد أن أُدخلت في الملاك العددي للسفارة الاسبانية. إلا أنه - كما يقولون - لايمكن إخفاء الشمس بالغربال. فمن خلال اللقاءات العملية مع

القادة المصريين، اعلموني بقلق واضطراب عن احتمال ظهور الأمريكان مجدداً في منطقة شرق المتوسط. ومما زاد من اضطرابهم وانزعاجهم هو النبأ الذي تمت إذاعته، عن وصول مستشار الحكومة الأمريكية «روجرز» إلى القاهرة وان هذه «المبادرة» على ما يبدو لها علاقة إلى درجة ما بانحراف السياسة التي ينتهجها السادات.

أثناء اللقاءات التي كانت تجري بيني وبين السادات، كنت ـ بالطبع ـ أحدثه عن لقاءاتي مع القادة المصريين ـ الآخرين. وكان السادات يرد علي بتسرع:

ـ «اعرف، اعرف،لقد حدثوني عن ذلك».

وبقدر ما كنت أشعر بأن العلاقات بين أعضاء القيادة المصرية ليست على مايرام بقدر ماكان هذا يتطلب مني الحذر.

ففي نهاية اجتماعاتنا مع السادات، خلال آذار ـ نيسان ١٩٧١ ، سألته وكأن سؤالي ليس متعمداً:

ـ قل لي من فضلك، يا سيادة الرئيس، من هم أفضل أصدقائك من القياديين، ومع من منهم أستطيع أن أتحدث بمنتهى الصراحة؟

أشار السادات إلى: ـ «محمد فوزي، شعراوي جمعة، سامي شرف، (سابقاً.. كان قد ذكر اسم علي صبري ايضاً» والباقي حسب التسلسل المذكور، واسترعى سؤالي انتباهه، فعاد ليسألني:

ـ «لماذا سألت عنهم يا حضرة السفير؟»

ـ هكذا... أردت أن أكون متيقناً فقط.

خلال هذه الفترة كانت السادات قد أرسل وفداً مؤلفاً من علي صبري، محمد فوزي، شعراوي جمعة وسامي شرف، إلى موسكو لإجراء مباحثات في غاية الأهمية مع القيادة السوفياتية. وكان يتقصد ـ السادات ـ من إرسال هذه المجموعة إلى القيادة السوفياتية كدليل على ثقته بهم، باعتبار أنهم أصدقاءه الأوفياء.

.. عندما وصل روجرز إلى القاهرة، استقبله السادات بشكل احتفالي مبالغ فيه واجتمع به على انفراد، خلال الاجتماع كان وزير الخارجية (رياض) مضطراً لأن يبقى جالساً خارج غرفة الاجتماعات لمدة ساعتين بانتظار انتهاء مباحثات السادات ـ روجرز السرية.

بعد اجتماعه بالسادات، طار روجرز، مباشرة إلى تل أبيب، ومن تل أبيب جاء إلى القاهرة كل من سيسكو، «مستشار الحكومة الأمريكية» وموظف آخر من الإدارة الأمريكية يدعى سترنير. قام السادات ـ أيضاً ـ باستقبالهما والاجتماع بهما على انفراد.

زال العجب من تصريح روجرز، وصار واضحاً ماكان يقصده بعد اجتماعه بالسادات:

ـ «لا أستطيع أن أطالب مصر بأكثر من ذلك!». وكانت هذه الجملة تحمل تفسيران، مدركاً بأن مغازلة الأمريكان لايمكن أن تمر دون أن تلاحظها الأطراف الأخرى، لهذا فقد طلب مني السادات، أكثر من مرة أن أنقل إلى موسكو رغبته في توقيع معاهدة صداقة وتعاون بين مصر والاتحاد السوفياتي. (يجدر بي القول أن هذه الفكرة كانت قد ولدت لأول مرة في ذهن عبد

الناصر) وقد لاحظت من خلال نبرة حديثة، بأنه لايتوقع بأي شكل من الأشكال ـ نظراً للظروف التي كانت تمر بها المنطقة والعالم في ذلك الوقت ـ أن يقرر الاتحاد السوفياتي رفض طلبه هذا (يبدو أن هذا ما كان يبحث عنه السادات فعلاً، وكان يلزمه لغرض في نفسه).

في ساعة متأخرة من مساء ١١ أيار ١٩٧١ ، كنت مع السادات في مقر إقامته بالجيزة على ضفة النيل، ليس بعيداً عن سفارتنا. كنا جالسين في حديقته وكانت كلابه المدللة تركض حولنا وتقفز فوق بعضها أو فوق الكنبة حيث كنا نجلس وهي تداعب سيدها بل وتعضه أحياناً من رسغ قدمه. وكان السادات يبعدهم بتكاسل وهو يتذمر من الإرهاق والتعب والمصاعب، وعن حبه للتفكير على انفراد، إلى جانب النهر. وناقشنا التطورات الأخيرة. وفي نهاية الزيارة سألته مرة ثانية عمن هم أصدقائه المقربين من أعضاء القيادة المصرية.

ابتسم السادات بسخرية قائلاً:

ـ «شعراوي جمعة، فوزي، وسامي شرف، إنهم أكثر الأصدقاء المقربين لي، وبإمكانك أن تثق بهم كما تثق بي».

أكرر كان هذا في مساء ١١ أيار ١٩٧١ .

في ١٣ أيار، أقامت سفارتنا بالاتفاق مع سفير ألمانيا الشرقية بيير باخ، حفلة صداقة لعناصر وموظفي السفارتين، في بناء سفارة ألمانيا الشرقية. وقد حاول الرفاق الألمان، أن يقدموا برنامجاً مفرحاً، لكن ذلك لم يكن ليبعد الهم عن نفسي، فقد كنت أشعر (وكان

هذا قد بدأ يتوضح)، بأن أحداث عظيمة ستمر على مصر. لكن ماهي هذه الأحداث؟... لم أكن أعرفها بعد.

كان الحفل في منتصفه تقريباً عندما نهض بيير باخ، بعد أن قام أحدهم باستدعائه. وبعد فترة من الزمن عاد وهمس في أذني:

ـ «أخبرني سائقي بالخبر الذي سمعه بالراديو عن نبأ استقالة سكرتير اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، وزير الداخلية شعراوي جمعة!».

ـ استقالة ـ كررت الخبر ـ، لأي سبب؟

ـ «لا أحد يعرف، لم يذيعوا تبريراً لذلك، إما أن يكون قد قدم طلب استقالته شخصياً، أو ربما طلبوا منه أن يستقيل، على العموم يمكن أن يكون سائقي مخطئاً». طبعاً كان لهذا الخبر ان يعني الكثير، مما تطلب مني أن أغادر الحفل، ومما زاد من مسؤوليتي ضرورة أن أكون من بين الحضور لإفتتاح حفلة البالية التي سيقدمها فنانوا الباليه السوفيات على مسرح «أوبرا القاهرة»، بعنوان «دون كيشوت». وقد كانوا بانتظار حضوري، وإذا لم أكن متواجداً في حفل الافتتاح وخاصة في هذا المساء فسيكون أي تفسير لغيابي يحتمل سبباً في تأويلات مختلفة.

في العمل الدبلوماسي ـ كما ثبت لي أكثر من مرة ـ من الضروري أن تتصرف بالبداهة أي الفعل الانعكاسي للخبرات المتراكمة، فقد أحسست بأن شيئاً ما لابد أن يحدث وقد قمت باستغلال ظلال القاعة، فخرجت من المسرح سراً. وبغض النظر عن أن الوقت كان متأخراً فقد بقي رفاقي في السفارة بانتظاري: ـ

«لقد استمعوا هم أيضاً من الراديو أنباء استقالة شعراوي جمعة، وها أنهم قد أوقفوا إرسال برامجهم وأخذوا يبثون بدلاً عنها موسيقى لمارشات حماسية ـ وهذا دليل واضح على أن هناك شيء ما هام قد حدث».

وهذا نبأ آخر جديد:

«بعد أن قبل الرئيس استقالة شعراوي جمعة، تقدم كل من وزير الدفاع فوزي، ورئيس التجمع الوطني لبيب شقير، ووزير الدولة سامي شرف، ووزير الإعلام محمد فايق، وسكرتير اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي أبو النور داود وغيرهم، باستقالاتهم. وقد قبل الرئيس استقالتهم وتم تعيين الفريق رئيس الأركان صادق، وزيراً للدفاع، ومحافظ الاسكندرية ممدوح سالم وزيراً للداخلية، فور قبول استقالتهم».

بدأ الوضع يتوضح. فالمجموعة التي قدمت استقالتها كانت ـ على مايبدو ـ تحاول أن تشكل ضغطاً على السادات. ولكي يخلو له الجو لتصفية القيادات الأخرى. فيما بعد تم الصاق تهمة «المتآمرين»، بالمجموعة التي قدمت استقالتها... «وسمح لهم بأن يتفرقوا ويذهبوا إلى بيوتهم كي يرتاحوا...» طبعاً لم تكن هذه محاولة انقلابية، فالانقلابات لاتتم على هذه الشاكلة.

لقد أدهشني السادات، بإقالته أقطاب السياسة المصرية «مجموعة ـ شعراوي جمعة»، وكأنه تقصد أن يقوم بطرد جماعي لكل من يبدي عدم ارتياحه للخط السياسي الذي ينتهجه، وبسرعة كبرى، وجد البديل القيادي والذي يعتبر مفتاح القوتين الرئيسيتين

في مصر ـ الجيش والبوليس..! هذا يعني أنه كان قد حضر المرشحين للمناصب «الشاغرة» منذ زمن بعيد، بالرغم من أنه كان قد قال لي، ومنذ ويومين فقط:

ـ «يمكنك أن تثق بشعراوي جمعة، فوزي، وسامي شرف، كما تثق بي أنا، إنهم أكثر القياديين المقربين إلي» ـ لماذا قال لي ـ ومنذ يومين فقط ـ هذا الكلام، هل كان حديثه هذا يتضمن معنىً سرياً خاصاً؟

بعد مضي يوم واحد على اعتقال «المتآمرين»، ـ هكذا صاروا يدعونهم في الصالون المخصص للاستقبالات في مقر الرئيس السادات ـ استقبلني الرئيس في قصر الطاهرة. خلافاً لناصر، كانت السادات يستقبل السفراء في أماكن مختلفة ومتنوعة، وتبين فيما بعد أنه كان يتقصد أن لايقيم في مكان واحد أكثر من يوم واحد فقط. وهكذا فقد استقبلني في بيته الشخصي في القاهرة، وفي قصر الطاهرة، وفي مقر الحكومة الرسمية الذي يفصله عن منزله شارع واحد فقط، (كان السادات قد أمر بأن يعيدوا ترتيب المتحف الذي يقع تحت بناء مقر الحكومة)، وفي مقرات الحكومة الرسمية في هليوبوليس، حلوان، الاسكندرية، المعمورة، البرج العربي، في بيته الريفي حيث ولد، في مقر الاتحاد الاشتراكي، في المقر الحكومي «بر الرجاء».

لم يكن ناصر يملك بيتاً شخصياً له. كان يعيش مع عائلته في إحدى القطعات العسكرية وبتواضع، بينما كان السادات ـ مستخدماً مركزه كرئيس ـ قد قام بشراء بيت ضخم فاخر على

ضفة نهر النيل، وبسعر رخيص جداً، لكن أثاثه كان خالياً من الذوق ثم قام بإحاطة البيت وعلى مسافة كبيرة بسور لمنع اقتراب العامة منه.

كان شكل السادات على أسوأ مايمكن أن يكون عند مقابلتي له: ـ لقد أصبح لون جلده أسمراً رصاصياً، مرهقاً من قلة النوم والسهر، وقد ظهرت تحت عينيه جيوب منتفخة وكان العرق يتصبب غزيراً من جسده، ولم يكن يتوقف لحظة عن تنشيف عرقه بمحارم ورقيه. ماقدمه من تبرير لم يكن مقنعاً.. لقد قاموا بفضح أنفسهم وبسرعة... كان على صبري وغيره من القادة يقومون بالحفر تحت سلطة الرئيس.. ويتدخل في سلطاته وعلى سبيل المثال تحدث السادات عن: ـ عملهم المتقن، والمخطط، لإفشال فكرة إقامة الاتحاد الفيدرالي العربي (اتحاد الجمهوريات العربية، بين مصر وسوريا وليبيا، عندما طرحت على مؤتمر الاتحاد الاشتراكي العربي) وغير هذه الحجج، التي يصعب تصديقها والتي كانت الصحافة والإعلام يصران على إذاعتها وكتابتها في الجرائد والمجلات «وأنه كان ـ الرئيس ـ في بيته عندما جاءه أحد الشبان ومعه شريط كاسيت مسجل عليه صوت السادات، ثم الحديث الذي دار بين شعراوي جمعة وعلى صبري وفوزي وغيرهم. وقد فهم من هذا الشريط المسجل بأنهم يحملون «نوايا سيئة». «وعندما وافقت على استقالة هذه المجموعة أردت أن أذهب فوراً للحديث إلى الشعب ـ كان يقول ـ لكنهم لم يسمحوا لي بالذهاب إلى محطة الاذاعة والتلفزيون لاعتبارات أخرى».

أراد السادات، أن يقنعني من خلال تأكيداته، بأن الأحداث

التي جرت في القيادة المصرية يجب أن لاتؤثر سلباً على العلاقات المصرية ـ السوفياتية. وكان يسعى لتطميننا، بأن علاقاتنا ستكون جيدة، وهكذا خرجت صحف اليوم التالي، بهذا النفس معربة عن التعاون والعلاقات الطيبة مع الاتحاد السوفياتي، بعد أن أشارت إلى اجتماع سفير الاتحاد السوفياتي مع الرئيس السادات.

ولكي يستعطف موقف الشارع العريض، فقد سمح السادات للصحافة بأن تنشر من جملة الرواية بأن إحدى الجرائم الرئيسية التي أدت إلى إقالة «المتآمرين» هي قيامهم بتنظيم مجموعة خاصة للتنصت على الأحاديث الهاتفية للشعب المصري، ثم عرضوا في التلفزيون مسرحية متفق عليها: «يقف الرئيس السادات ووزير الداخلية الجديد في مدخل بناء وزارة الداخلية ووجوههم تطفح بالفرح والسعادة وهم يرمون أكداساً من أشرطة الكاسيت، إلى برميل متوهج بالنار».

بالطبع هذا المنظر ـ العرض ـ أضحك المصريين كثيراً، لماذا يقومون بإتلاف أشرطة الكاسيت ـ هذه الأشرطة المستوردة، الجيدة، بالرغم من معرفتهم بأن مسح ما سجل على الشريط هو أمر سهل وبسيط للغاية... إضافة إلى ذلك أن هذه الأشرطة تلزمهم لتكون بمثابة دليل مادي لإدانة «المتآمرين».

بعد مضي شهرين، التقيت بالمصادفة على شاطئ الاسكندرية مع هيكل، وبشكل طبيعي قادنا الحديث إلى الأحداث القريبة الماضية. لم يتعاطف هيكل مع مجموعة «المتآمرين»، وكان يعتقد بأن السادات إلى درجة مايثق به. ثم قال متذكراً، بأن السادات قد

حدثه في إحدى المرات، عن وجود علاقة بينهم وبين سفير الاتحاد السوفياتي. وما أصابني بالدهشة هو أن هيكل، لم يكن يريد أن يستمر في كلامه للنهاية، بل كان يقطعه في بعض المواقع. وأجبته:

ـ لقد التقيت معهم بشكل طبيعي لمناقشة بعض الأمور، لأنهم كانوا يحتلون مواقع وظيفية عالية في القيادة المصرية. بل حتى أن الرئيس نفسه طلب مني أن ألتقي معهم بخصوص بعض الأسئلة. كما كان يرسلهم إلى موسكو وبتكليف شخصي منه. وعلى العموم، لقد أعلمت الرئيس في أكثر من مناسبة عن لقاءات العمل التي كانت تتم بيني وبينهم، وقد أجابني بأنه مطلع على ذلك. وعلى فكرة ـ قلت لهيكل ـ في أثناء لقاءاتي مع الرئيس في آذار ـ نيسان، بل وفي آخر لقاء لي معه قبل يومين من الأحداث، كنت قد سألته ـ ومن قبل أكثر من مرة ـ «من هم أكثر الأشخاص الذين تثق بهم، لكي أستطيع أن تحدث، إليهم، حديثاً صريحاً ومباشراً. وفي كل مرة كان يُسمي لي نفس الأسماء، والذين اتهمهم فيما بعد بالتآمر، ومن ثم قام باعتقالهم فلماذا إذن كان يقدم لي هذه النصائح والتوجيهات؟».

لم يرد هيكل على سؤالي مباشرة، لكنه قال:

ـ إن السادات أعطاه شريط كاسيت مسجل، لحديث جرى بين السفير السوفياتي وسامي شرف بتاريخ ٩ ايار».

ارتابني التشكك، واقترح هيكل عندئذٍ بأن أذهب إليه في مكتبه كي يسمعني شريط الكاسيت المذكور. طبعاً رفضت عرضه لأنني لم أكن أريد أن أتدخل في هذه القصة، بل حتى أن

اهتمامي، بالرغم من أنني كنت أعرف وبشكل قطعي أن الحديث الذي دار بيني وبين سامي شرف لم يكن فيه مايستوجب إدانة السفير السوفياتي به. ومع هذا فقد قررت أن أختبر هيكل:

- عمَّ كان يدور الحديث؟

- «أكد سامي شرف أن النشاط الذي يقوم به السادات من خلال مباحثاته مع الأمريكان لايمكن التكهن بطبيعته، بل لايمكن معرفة القرار الذي سيتخذه الرئيس بين ساعة وأخرى، لكثرة تقلبه، وفي النهاية سأل (أي سامي) السفير: «ماذا يجب أن نتصرف مع الرئيس؟» قلت لنفسي أن هيكل قد أعاد ماقاله سامي شرف كلمة كلمة وبالضبط. ومع هذا فقد سألته:

- حسناً، وماذا كان جواب السفير، لسامي شرف؟

- ابتسم هيكل - أجابه السفير: بأن هذا السؤال ليس من اهتمامه، وأن السادات هو رئيسكم، ويجب عليكم أن تتكاتفوا حول الرئيس، لكي تكون القيادة ذات إرادة موحدة، ورأي واحد في قيادة البلد.

وعندما وصل الرئيس والذي كان يستمع بانتباه شديد إلى هذا الحد من الحديث المسجل على الشريط، وحسب العادة العربية، ضرب كفاً بكف تأسفاً، وصرخ قائلاً

- يا سلام! لم يستطع سامي أن يوقع بالسفير، لقد أفلت منه، كان وكأنه يسير على حد السكين!».

- ماذا يعني الرئيس «بأنه لم يوقع به»، أو «أفلت منه»؟! كيف

كان يمكن أن أجيب على سؤال كهذا؟.. لا أعرف. يمكن أن الرئيس باستماعه هذا كان يفترض أن يستمع إلى شيء آخر..» وبكلمات أخرى، إن السادات كان يرغب ربط هؤلاء «المتآمرين» بالاتحاد السوفياتي؟

الشعبية الواسعة التي كان يتمتع بها ناصر في الشارع المصري، لايمكن أن نقارنها أبداً بشعبية السادات. إن ثورة ١٩٥٢ التي قادها جمال عبد الناصر قد أعطت الكثير للجماهير الكادحة: الإصلاح الزراعي، إلزامية التعليم، الضمان الاجتماعي، قوانين العمل وغيرها.. ـ لكنها لم تقض على عدم المساواة الاجتماعية، التي كان يعاني منها أغلب أبناء الشعب المصري الأمي. والأمية حسب التعريف اللينيني لها تقف بعيدة عن السياسة. أي أن الشعب لم يمارس دوراً فعالاً في عملية التحولات وبالتالي كان دور الشعب سلبياً في العمل السياسي وهذا يعني أن ثورة ١٩٥٢ لم تنته ولن تنتهي وأن السلطة بطريقة ما سوف تنتقل إلى يد الطرف الأقوى، والأقوى كانت وماتزال هي البورجوازية، وإن الرئيس السادات خير من يمثل مصالحها.

لم يخرج الشعب في مظاهرات احتجاجية ضد اعتقال زملاء ناصر. وقد طالب المدعي العام بالموت حكماً عليهم. إلا أن الرأي الغالب في المحكمة كان هو إدانتهم والحكم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة ولمدة طويلة. إن الكثيرين من المصريين لم يعرفوا ماهية الخلافات بين الرئيس السادات وبين أعضاء القيادة السابقين لأنه كان يخفي متقصداً القناة التي أقامها مع الولايات المتحدة الأمريكية والاتصالات السرية المستمرة ـ من خلالها ـ بينه وبين

الأمريكان، والتي كان شديد الحرص والكتمان على قيامها واستمرارها. خلال هذه الفترة أخذت القوى اليمينية ترتب الأمور الداخلية بنجاح لصالحها، كما يبدو أن الأمريكان زادوا من ضغطهم. وكانت هاتان القوتان تحاولان أن تحققا وبسرعة، ابتعاد مصر عن الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي. وبدأت المحاولات تدريجياً لخلق مناخ معادٍ للسوفييت، من خلال إطلاق الدعايات المعادية والاشاعات الكاذبة عن بلادنا، وبطبيعة الحال تطلب الرد عليها أو منعها.

أستطيع أن أسمح لنفسي القول: ـ بأن الشعب المصري قد تجذرت في أعماقه ووجدانه العلاقة الطيبة التي أقامها الاتحاد السوفياتي مع بلاده. وبالمقابل علاقة المواطنين السوفيات الذين عملوا إلى جانبهم، وأن الموقف البعيد عن الصداقة والامتنان الذي وقفه السادات، ومن خلفه بعض الصحف المصرية في حملتها على مواقف الصداقة السوفياتية، لم تلق دعماً وتأييداً من الشارع المصري، وبالرغم من معاناته المعيشية وحياته القاسية إلا أنه، يبقى ذلك الشعب الطيب النشيط المحب للنكتة والعمل، الذي لايهدأ ببحثه عن الحقيقة وإدراكه لها بشكل عفوي أحياناً.

إن القسم الأعظم من هذا الشعب الدمث يعاني من الأمية. لكنه مع ذلك يدرك وبشكل جيد أن الشعب السوفياتي والحكومة السوفياتية، وقفا إلى جانب الشعب المصري في اللحظات الصعبة لأنهم أصدقاء حقيقيون والأمثلة واضحة حتى بالنسبة لأبسط مواطن مصري، فهو مايزال يذكر موقف الاتحاد السوفياتي من العدوان الثلاثي على مصر وانذاره للدول المعتدية. كما ويذكر

الانكليز المحتلين المتعجرفين أثناء احتلالهم لمصر وطريقة تعاملهم كأجانب مع أبناء مصر. وهو لايجد مجالاً لمقارنتهم مع المواطنين السوفيات المتواضعين من اخصائيين وتكنولوجيين الذين تعلموا منهم أثناء عملهم المشترك، سواء في المعامل أو المصانع أو البناء أو في الاستشارات العسكرية، هؤلاء الرفاق الذين كانوا يقاسمون الجنود المصريون متاعب ومصاعب الخدمة الإلزامية. مع هذه المؤشرات الموضوعية - تكونت ذهنية الشارع المصري - وبالتالي كان السادات ملزماً بأن يساير الشارع المصري، ليعبر في خطاباته - أحياناً بكلمات طيبة عن الاتحاد السوفياتي أو يتظاهر وبشكل استعراضي بتقديم طلب إلى الاتحاد السوفياتي لتوقيع معاهدة صداقة وتعاون بين مصر والاتحاد السوفياتي.

إن توقيع معاهدة كهذه بدون شك، يخدم مصالح الشعبين ويقوي العلاقة بين البلدين وبشكل موضوعي، يجعل أي دولة تحاول أن تعتدي على أحد البلدين تفكر طويلاً قبل إقدامها على ذلك. **وقد وافقت حكومة الاتحاد السوفياتي على طلب السادات بتوقيع معاهدة صداقة وتعاون بين مصر والاتحاد السوفياتي.** ومن خلال المباحثات التي أجراها الوفد السوفياتي في القاهرة، **وافق الاتحاد السوفياتي على جميع المقترحات التي تقدم بها الجانب المصري ــ بالتمام والكمال ــ فيما يتعلق بنصوص المعاهدة** (بينما زعم السادات وفي أكثر من مرة ومن خلال أحاديثه عن معاهدة الصداقة والتعاون بأن الجانب السوفياتي فرض عليه نصوصها دون أن يأخذ بعين الاعتبار الملاحظات التي تقدم بها الجانب المصري... وغير ذلك).

في ٢٧ أيار ١٩٧١ تم توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين الجمهورية العربية المتحدة واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، وقد أحدث توقيعها صدىً عظيماً في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى أثر ذلك قامت الإدارة الأمريكية بإرسال مبعوثها السيد سترنر ـ فوراً إلى القاهرة، وكان السادات «مضطراً»، لأن يطمئن هذا المبعوث الدبلوماسي بأن ماكان معروفاً عن نواياه ـ لدى الأمريكان ـ ستبقى كما هي، ولن يتغير منها شيئاً. لكن ما أخذ يتوضح بأن «التحسن الذي كان قد طرأ» على العلاقات المصرية ـ الأمريكية قد أصابه شيء من الجمود. ولكي يخلّص السادات هذه العلاقة من البرود التي أصابها، كان محتاجاً لذريعة ما، كي يثبت للولايات المتحدة الأمريكية، إخلاصه ووفاءه لها.

وكانت ذريعته حاضرة.. وهي المستشارون والخبراء العسكريون والفنيون السوفيات الذين كانوا يعلّمون ويقدمون الخبرة اللازمة لأبناء الشعب المصري، والذين تم استقدامهم إلى مختلف القطاعات الاقتصادية والعسكرية عملاً بطلب شخصي من الرئيس ناصر والقيادة المصرية (بما فيها السادات نفسه).

كنت غالباً ما أقوم بزيارة القطع الحربية السوفياتية، أثناء مرورها أو توقفها بالاسكندرية وأذكر حالة الهرج والمقابلة الودودة والصديقة، التي كان يقابل بها سكان الاسكندرية القطعات الحربية السوفياتية عند توقفها في مصر (حاملة الصواريخ «فارياج»، ومضادات الزوارق «كومونة باريس» و«أوكرانيا الحمراء» والغواصة الذرية الهائلة).

كانت هذه القطع الحربية، ترسو كغيرها من السفن العادية إلى رصيف الميناء، إلى جانب غيرها من السفن والبواخر الأجنبية المخصصة للركاب والمسافرين، وكان هؤلاء يقومون بأخذ صور تذكارية إلى جانبها أو يقوم بعضهم بتصويرها بكاميرته التلفزيونية. طلب السادات أن يكون توقف هذه البواخر والقطع الحربية في الموانئ المصرية محصوراً بموافقته الشخصية. وفي الفترة الأخيرة صار يرفض زيارته لهذه السفن وكلف وزير الحربية بالقيام بهذه المهمة عوضاً عنه، معللاً الأسباب التي دفعته إلى هذا الرفض هو «مقتضيات البروتوكولات المتبعة»، بأن رئيس الدولة لايمكن أن يظهر على متن السفن الحربية لدول أخرى، إذا لم يكن على ظهر هذه السفن رئيس الدولة التي ترفع علمها عليها.

والقصة الصحيحة هي أن ظهور السادات على ظهر القطعات الحربية السوفياتية أمر لم يعجب الأمريكان، الذين كان السادات، يحاول وبأي طريقة كانت أن يجد سبباً يقربه منهم أو ليزيد من حجم اتصالاته معهم. وعندما بدأ بإحصاء «أخطائه» وآخرها كان تواجده في القاعدة الجوية العسكرية، حيث عرضت أمامه إمكانيات سلاح الطيران الحربي، وتأكد له بأن سلاح الطيران الحربي المصري أقوى من الإسرائيلي، وهذا على ما يبدو قد أزعجه، عند تفكيره في الحسابات التجارية التي كان قد أخذ يحضر لها مع الجانب الأمريكي. وهكذا أخذ السادات يشدد من محاولاته لتشويه سمعة التعاون العسكري السوفياتي مع مصر ويشهر به. وقد بدأ بجملة نشاطات عدائية يقصد منها إرسال ظلال من الشكوك على الخبراء العسكريين السوفيات، الذين كانوا يعملون بشرف

وإخلاص كبيرين في ظروف بيئية لم يتأقلموا عليها لتنفيذ مايمليه عليهم وجدانهم.

في أيلول ١٩٧١ ، يبدو أن المخابرات الأمريكية، قد أفرطت في نشاطها داخل مصر، بل أخذت تنشط بشكل مكشوف، ضد القوات الحربية المصرية، وبسبب هذا ظهرت «قضية راندوبولو»، ومحاولتها تجنيد مواطنين مصريين للعمل مع المخابرات الأمريكية من خلال جملة المقاولين ومتعهدي البناء في القطاعات والمنشآت الدفاعية العسكرية. فقد استطاعت إحدى فتيات الجاسوسية الأمريكية وكانت تدعى سيفين (كما يقول هيكل في كتابه الطريق إلى رمضان)، أن تقيم مع هؤلاء المتعهدين بعض العلاقات بحكم عملها لصالح إحدى البعثات الأمريكية.

استطاعت المخابرات المصرية اعتقال راندوبولو وسيفين، ووجهوا - في نفس الوقت - ملاحظة إلى سفارتنا، بأن الخبراء والمستشارين العسكريين السوفيات لم يكونوا متيقظين كما يجب، وهم بذلك يقدمون خدمة لعملاء إسرائيل.

وبما أن الخبر الرسمي كان هو: - أن راندوبولو، كان جاسوساً أمريكياً، لكنه يقوم بخدمة المصالح الإسرائيلية! فقد سعينا إلى الرد على الملاحظة - الموجهة إلى خبرائنا «المثيرة للسخرية» برد متعقل وتأكيدي: - بأن مكافحة التجسس والنشاط الجاسوسي المعادي في مصر، يقع على عاتق الحكومة المصرية فقط.

فيما بعد قرأت وبمتعة كبيرة ما كتبه هيكل في كتابه، عن اعترافات عميل المخابرات المركزية الأمريكية في مصر «يوجين

ترونه». فقد كتب بشكل واضح وصريح الاعتراف التالي، معنوناً إلى رئيس المخابرات ومكافحة النشاط التجسسي في مصر الجنرال أحمد اسماعيل:

ـ «اريد أن أؤكد لكم، بأن المعلومات التي حصلنا عليها من خلال جاسوستنا لم يتم تقديمها إلى إسرائيل. انها كانت مفيدة للولايات المتحدة الأمريكية فقط. بل أنها كانت في الوقت نفسه مفيدة لمصر أيضاً، بقدر ما أعطت مجالاً للحكومة الأمريكية كي ترد على الحكومة الإسرائيلية: ـ فالأخيرة، تحاول أن تضخم الأمور، حيث تشير في تقاريرها دائماً، إلى أن السوفيات يقومون بمد المصريين بأسلحة متطورة. كل ذلك كي تحصل ـ الحكومة الإسرائيلية ـ من خلال هذه الحجج على أسلحة جديد ومتطورة من الولايات المتحدة الأمريكية.

اريد أن تعرفوا، بأن مصر لم تكن هي المقصودة من عملية التجسس هذه، وكما يقولون بأن الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي، يقومون بتسابق تجسسي لجمع المعلومات كل عن غريمه. وما قمنا به من أعمال في مصر، كان موجهاً إليهم وليس إليكم». قرر السادات أن يطلق سراح الجاسوسة الأمريكية (يشير هيكل)، وكان قصده من ذلك هو إقامة قناة من خلال هذا الإجراء مع الحكومة الأمريكية. ويبدو أن إقامة هذه القناة كان بالنسبة إليه أمراً هاماً جداً ليصل إلى المعادلة التالية:

(السادات ـ المخابرات المصرية ـ المخابرات المركزية الأمريكية ـ مستشار الأمن القومي الأمريكي «هنري كيسنجر»).

في مطلع عام ١٩٧٢ ، تعرضت مجموعة كبيرة من الضباط السوفييت، أثناء عودتهم إلى الوطن، لتفتيش وفحص مهين ومتعمد في مطار القاهرة. وقد أجابهم موظفوا الجمارك بلهجة فظة: ـ بأن الإجراءات التي نقوم بها هي تطبيقاً لتحري الإشاعات التي تتناول الخبراء السوفييت، «بأنهم يقومون بتهريب الحلي والذهب من مصر إلى الاتحاد السوفياتي». طبعاً لم تجد الجمارك المصرية أي ذهب مهرب مع خبراءنا. إلا أن هذا الإجراء الاستفزازي، تطلب مني اتخاذ حلاً نهائياً يلغي تكرار هذه المعاملة، وقررت أن أتوجه بهذا إلى الرئيس.

في مساء ذلك اليوم بالضبط، بُلغت بأن السادات «كان يبحث عني» ـ كنت أتحدث مع رئيس الوزارة، عزيز صدقي، في بيته، عندما اتصل السادات بالهاتف قائلاً:

ـ «بأنه في غاية الخجل بسبب «المكافأة غير اللائقة» التي قدمها رجال الجمارك المصريون للخبراء والمستشارين العسكريين السوفييت، لقاء العمل المخلص الذي قاموا به في بلادنا». وطلب مني بأن أتجاوز هذه الحادثة. أي أنه عملياً قد تقدم باعتذاره عن هذا التصرف.

في المقابلة التي أجرتها معه مجلة «النيوز ويك» الأمريكية، أعرب السادات عن تذمره من أن الاحتفاظ بالخبراء السوفييت العسكريين، يشكل عبئاً على خزينة مصر، لما يتقاضونه من مبالغ ضخمة، وبالعملة الصعبة لقاء وجودهم إلى جانب القوات المسلحة المصرية.

ونظراً لأن هذا الكلام، كان غير صحيح من أصله وجوهره، فقد تقصدت في أثناء اجتماعي بالرئيس أن أقول له مازحاً (مشيراً إلى الكلام الذي نشرته «النيوزويك» عن لسانه) أن المستشارين السوفيات، في القوات المسلحة المصرية، يستغربون عدم صرف رواتبهم بالعملة الصعبة. أجابني السادات ممتعضاً وبلهجة مهزومة يشوبها الزعل:

ـ «إن ماذكرته الصحيفة هو حكي جرائد»، لكنه لم يرض بنشر خبر يكذب به «حكي الجرائد».

أعلن معاون وزير الخارجية الجديد فهمي على صفحات الاعلام بأن الاتحاد السوفياتي ليس أهلاً للثقة، وأنه لن يستمر إلى النهاية «مع مصر».. إلى نهاية ماذا؟.

أثار ما أعلنه معاون وزير الخارجية فهمي، معارضة كبيرة من وزير الخارجية غالب، والذي كان فيما مضى سفيراً لمصر في موسكو. وحاول أن يقوم بعزل فهمي من منصبه، إلا أن الذي جرى ـ فيما بعد ـ أن السادات قام بعزل وزير الخارجية غالب، ووضع بدلاً عنه معاونه فهمي.

في حزيران ١٩٧٢ ، تم عقد اجتماع بين ل. إ. بريجينيف وريتشارد نيكسون، وقد أثار هذا اللقاء حالة شديدة من الهياج العصبي لدى السادات. لأنه كان يريد وبرغبة شديدة أن لايحدث هناك اتفاق سوفياتي ـ أمريكي، بخصوص الشرق الأوسط ولأنه قد قام بربط مستقبله واستمراره بالأمريكيين، ويمكن لهذا الاتفاق أن يخرب إلى درجة ما الخطط التي وضعها في هذا المجال. وعندما

أحسسنا بحالة القلق والتهيج والانفعال التي أصيب بها السادات، بسبب لقاء القمة السوفياتي ـ الأمريكي، تقدمت بمقترح إلى حكومة الاتحاد السوفياتي أطلب فيها: إرسال أحد الذين حضروا لقاء القمة إلى القاهرة، كي يطلع القيادة المصرية على ما اتفق عليه. وكان حضور مندوبٍ سوفياتي، ضرورياً، لينقل حتى ولو بشكل مختصر مضمون المباحثات التي جرت بين ل. إ. بريجنيف ونيكسون. إضافة إلى ذلك للإجابةعلى بعض التساؤلات التي يمكن أن تظهر لدى المصريين، وربما يتمكن «المندوب السوفياتي»، أن يعدل من مواقف السادات.

انتهت زيارة نيكسون إلى موسكو، ولم يتضمن البيان الذي صدر عقب اللقاء والمباحثات السوفياتية ـ الأمريكية، عن حل نهائي للصراع الدائر في الشرق الأوسط، باستثناء عبارة تشير إلى: ضرورة تقليص توريد الأسلحة إلى الشرق الأوسط.

لو تسطيعون تصور، أي انطباع تركته هذه العبارة على صحة ما كان يدعيه «الرئيس»!. كان السادات يوهم نفسه والآخرين معه أيضاً، بأن الاتحاد السوفياتي لايلبي طلبات مصر، من حيث كمية ونوعية السلاح، بينما الولايات المتحدة الأمريكية، تلبي (وستبقى تمد اسرائيل، بغض النظر عن أي اتفاق توقعه كما كان يؤكد السادات)، جميع احتياجات إسرائيل.

كان ديوان الرئاسة بين وقت وآخر يتساءل باهتمام عن وصول معلومات ما بهذا الخصوص من موسكو. وكنا نجيبهم بأننا بانتظار ذلك قريباً. صار من المعلوم بأن نيكسون، قد أرسل رسالة

شخصية إلى السادات، يعلمه فيها بملخص المباحثات التي أجراها في موسكو..

كانت الرسالة تتضمن شرحاً بعيداً عن المصارحة والوضوح. وإشارة إلى إمكانية الوصول بسهولة إلى تفاهم مع الروس حول قضايا السياسة الدولية (وكأنهم يريدون أن يلفتوا نظر السادات إلى أنهم سيتفاهمون مع الروس). أما بخصوص الموضوع الذي كان يهم السادات، الوضع في شرق المتوسط؛ فلم تتطرق الرسالة إلى أية إشارة عنه.

هذا الأمر جعل السادات يضرب أخماساً في أسداس، وخلق لديه انطباعاً مصطنعاً وكأن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية لاينظران إلى قضية الشرق الأوسط بجدية كافية أو «أنهم قد بيتوا أمراً ما، ولايريدون أن يخبروا السادات به». يجب القول **أن هذا التقصد الذي أبداه نيكسون في رسالته، كان دليل ذكاء دقيق، كي يؤثر على السادات من الناحية النفسية ولم يكن هذا التأثير لصالحنا.**

وأخيراً جاءتنا من موسكو المعلومة، التي يجب أن ننقلها إلى السادات. ودون إرادتي تذكرت تعريفاً ظريفاً «إن عمود التلغراف - هو شجرة صنوبير قطعت بشكل جيد...». بهذه المشاعر التشاؤمية، **اضطررت أن أذهب لمقابلة السادات.** استمع إليَّ بوجوم وكآبة وأنا أنقل إليه المعلومات المتنوعة مع إضافة معلومات أخرى غير التي كان بانتظارها.

أستطيع الحكم بأنه قبل مقابلته لي، وبسبب تأخر ورود

المعلومات اللازم نقلها إلى السادات، من القيادة السوفياتية وعدم الاهتمام به، قد أدت به في نهاية الأمر إلى اتخاذه موقفاً: «يجب أن أتحدث بقسوة مع السوفييت»، ودون أي مقدمات نهض السادات وبعصبية مبالغ فيها، وطلب مني أن أنقل إلى موسكو وبدون أي رتوش، بأنه يرفض، بل ويستغني عن الخدمات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفياتي لمصر، وبدون اية كلمة شكر، للجانب السوفياتي لقاء الخدمات التي قدمها سابقاً، ودون أن يقدم التسويغات المناسبة لهذا الرفض، حتى لو كان شرحاً شكلياً، ودون أن يحسب، أن على قراره هذا «دون شك» ستترتب أمور ونتائج سياسية كبيرة، أقلها السخرية اللاذعة من الخبراء والمستشارين العسكريين السوفييت.

طبعاً، حاولت أن أعرف الأسباب من الرئيس، لكنه كان يرفض ويتجنب أن يتحدث بموضوعية عن الأسباب التي دعته إلى توجيه هذا الطلب. عندئذٍ قمت بتذكيره بأن الخبراء السوفييت قد حضرواإلى مصر، بعد إلحاح شديد ومستمر من قبل الرئيس ناصر، ومن بعده السادات بنفسه، لهدف واحد ـ «مساعدةمصر، كي تصبح دولة قوية أمام أعدائها، وأن هؤلاء الخبراء لايستحقون هذه الكلمات التي وصفهم بها الرئيس، والتي لن أقوم بنقلها إليهم». وعندما استمر الرئيس ـ مجدداً ـ بشن حملة من التشهير بالكادر العسكري السوفياتي المتواجد في مصر، شعرت بأن الحديث بيننا قد انتهى فنهضت مقاطعاً، وقلت:

ـ إذا لم يكن هناك للرئيس كلاماً آخراً، فإنني سأقوم بنقل

طلبه هذا إلى موسكو. وخرجت من حضرته، دون أن أصافحه، بعد أن هززت برأسي بإيماءة مودعاً.

لاحقاً، كما ذكر هيكل ـ بعد خروجي ـ استدعى السادات رئيس الوزارة عزيز صدقي ووزير الحربية صادق وبلغهم بقراره.

ـ «ماذا فعلت!؟ ـ صرخ هيكل ـ هل فكرت بنتائج قرارك هذا، وانعكاسه على الجيش والوطن؟». لقد شعر هيكل وكأنه أصيب بجرح عميق، مدركاً بأن ناصر ـ وبوجوده ـ كان قد ألح على القيادة السوفياتية، وأكثر من مرة، لإرسال خبراء عسكريين إلى مصر، والآن ها أن السادات، وبقرار فردي، يغير ماكان ناصر، قد حققه للقوات المسلحة المصرية، بفضل إصراره.

طبعاً لم نكن نعرف حينئذٍ، ما أراد هيكل أن يثبته من شهادة، في كتابه «الطريق إلى رمضان» إلا أنه يذكر بأن الرئيس الأمريكي نيكسون، قد أرسل مندوباً من قبله ليطمئن السادات قائلاً له: «ـ بإمكانه أن يفعل مايشاء ويذكره بأن مفتاح الشرق الأوسط، يملكه الأمريكان فقط»، وليس من العبث أن يكتب كيسنجر، أيضاً في مذكراته، بأن طرد الخبراء العسكريين السوفيات، كان مكسباً للسياسة الأمريكية، قدمه لها السادات دون أن يحصل على مقابل لقاء صنيعه هذا.

بالطبع غادر العسكريون السوفيات، بما فيهم الخبراء والمستشارون، مصر. وقد ودعهم أفراد وضباط القوات المسلحة المصرية بحزن كبير وبدموع كثيرة وهم يعربون عن خجلهم من التصرف الذي قام به رئيسهم.

فكرنا طويلاً بخصوص القرار الذي اتخذه السادات، والذي أضعف مصر سواء على الصعيد العسكري أو السياسي. بدون شك كان قراره هذا عن سابق تفكير وإصرار وتعمد. لكن على أي شيء اعتمد السادات عند تفكيره بهذا القرار؟ إن وجود الخبراء العسكريين السوفيات إلى زمن معين في مصر، لم يكن فقط لتقوية القوات المسلحة المصرية، ورفع مستواها عسكرياً وفنياً لتصل إلى المستوى المطلوب، بل ليمنع إسرائيل من التفكير بالقيام بأي عمل عسكري ضد مصر. ويكفي أن اذكر بأن الطائرات الإسرائيلية، توقفت عن قصف المناطق الآهلة بالسكان في مصر مع وصول دفعات من الخبراء والمستشارين العسكريين السوفييت.

تحدث السفير البريطاني معي بصراحة (وهذه مخالفة للأسلوب البريطاني المعروف)، بعد بضعة أيام من نشر قرار السادات في الصحف والإعلام، قائلاً: ـ

ـ «عندما كان الخبراء العسكريين السوفيات في مصر، كنا نسعى إلى تسوية النزاع في منطقة الشرق الأوسط. أما الآن وقد رحل الخبراء العسكريون السوفيات، لم يعد هناك سبباً يحفزنا لاتباع سياسة التسوية».

وهكذا تنازل السادات بمحض إرادته، وبقرار فردي عن السلاح القوي، الذي كان بإمكانه أن يشهره، أو يعتمد عليه في سياسة تسوية النزاع في منطقة الشرق الأوسط. وهذا يعني من جهة أخرى، أنه كانت لديه خططه السرية الخاصة مع الطرف الأمريكي. وكأنه بهذا القرار قد قدم لهم الدليل «أنني معكم!».

وهكذا فإن التقارب المصري الأمريكي سيصب في القناة الإسرائيلية، ومن الضروري البحث عن مبررات له. وهذا كان ممكناً تحقيقه في حالة واحدة، إذا أصبح الجانب المصري، يعتبر أن أمريكا، قد اتخذت على عاتقها مهمة تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط.

في عام ١٩٧٣ ، جرت في منطقة الشرق الأوسط، أحداث ذات مدلول عالمي، ألقت ضوءاً على الطريقة التي أدت إلى ظهور الولايات المتحدة الأمريكية في هذه المنطقة فقد حدثت الحرب، والتي شاركت فيها بشكل مباشر كلٌّ من مصر وسوريا وإسرائيل وقد سميت هذه الحرب، «بحرب أكتوبر» أو «حرب رمضان».

(٣)

إن حل الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وبالضبط إعادة الأراضي التي احتلتها إسرائيل، بما فيها الأراضي المصرية، وضمان حقوق الشعب الفلسطيني، كانت بالنسبة لمصر، ليس فقط هماً رئيساً في سياستها الخارجية، بل وإلى درجة كبيرة مشكلة لسياستها الداخلية. ولهذا فإن رغبة القسم الأعظم من الوطنيين كانت الإسراع في استعادة الحقوق المسلوبة للشعبين المصري والفلسطيني. وكان رأي ناصر، بضرورة تقوية الاقتصاد المصري من خلال الدعم السوفياتي، سواء في المجال العسكري للقوات المسلحة المصرية واستعادة بناءها، مما سيجعل لها دوراً كبيراً، على صعيد العلاقات الدولية، وكانت مصر قد استحوذت على تعاطف وتقدير مخلصين من قبل دائرة واسعة من الأصدقاء، حيال ما تقوم به من مشاريع التنمية وبشكل خاص من الدول الاشتراكية.

لم يعد هناك من مجال للشك ـ بعد موت ناصر ـ أن قضية إزالة آثار العدوان الإسرائيلي أصبحت مادة للمضاربة، يمكن استغلالها في العلاقات السياسية. وقد استغلها السادات على صعيد السياسة الداخلية، ليصفي بها خصومه السياسيين. وفي السياسة الخارجية صار يستخدمها كورقة ضغط، إما على الاتحاد السوفياتي

(كي يلقي عليه أسباب تعقيد وزيادة توتر الوضع في الشرق الأوسط، وفي نفس الوقت ليحاول من خلال هذه الورقة أن يحصل على مساعدات خاصة)، وإما على الولايات المتحدة الأمريكية (بأن يجلب انتباهها إليه، ومن ثم لتغير هي أيضاً، من نظرتها السياسية إلى مصر في ضوء القيادة الجديدة، كي يصبح بالنسبة لها، الشريك الذي لايمكنها الاستغناء عنه).

كان الرئيس المصري الجديد مدركاً، بأن حل الصراع الدائر في منطقة الشرق الأوسط لايمكن أن يتم دون مشاركة مصر (أكبر دولة عربية وأكثرها تطوراً وأقدرها عسكرياً) وبما أن إسرائيل تدرك بأن الولايات المتحدة الأمريكية تقف من خلفها مدافعة عن السياسة التي تنتهجها، فقد كانت - إسرائيل - متشددة بعنادها، «بعدم إعادة الأراضي العربية المحتلة إلى أصحابها». ولهذا فإن حل الصراع بالطرق السلمية، كان في قناعة أغلب العرب حلاً غير واقعي بسبب التعنت الإسرائيلي. لم يبق أمام العرب إلا حلاً واحداً وهو «إستعادة الأراضي المحتلة عن طريق استخدام القوة» وكان استخدام القوة مطلباً شرعياً وقانونياً، لأن الحديث كما هو ملاحظ، يدور عن استعادة الأراضي العربية المحتلة بعد عدوان حزيران.

لا أعتقد أنه كان بمستطاع العرب تحقيق استخدام القوة ضد إسرائيل، دون مشاركة مصر، وبدون شك كان السادات يفهم: - بأنه يسهل على إسرائيل إعادة الأراضي المصرية (شبه جزيرة سيناء، مقابل السلام معها)، مقارنة بإعادة الحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني أو الضفة الغربية لنهر الأردن أو مرتفعات الجولان

السورية أو الخروج من الجنوب اللبناني. وكان يدرك ـ ايضاً ـ أن قيام صلح منفرد بين إسرائيل ومصر، يمكن لمصر من خلاله استعادة أراضيها، سينظر إليه عربياً، بأنه موقف خياني للقضية العربية، وبالدرجة الأولى للحقوق الفلسطينية، السورية، الأردنية واللبنانية.

لم يكن ناصر، ليسمح لفكرة كهذه، حتى أن تمر في مخيلته مروراً عابراً، بينما قرر السادات تنفيذ هذه الفكرة. إن اتباعه هذا الطريق لتحقيق فكرته، سيكون الوسيلة التي يمكن الولايات المتحدة الأمريكية في أن تساعده من خلالها.

ولكي يبدأ تحقيق فكرته، عليه أن يجد «المبررات المنطقية!»، التي تسمح لظهور أمريكا في منطقة الشرق الأوسط، بعد أن طردها جمال عبد الناصر من المنطقة. والشيء الذي كان يعرقل تمتين العلاقة مع أمريكا، اعتبره السادات هو استمرارية علاقة مصر مع الاتحاد السوفياتي. وقد قام السادات بالإساءة للعلاقة المصرية ـ السوفياتية متعمداً تدهورها، بغض النظر عن أن ذلك يضعف مصر، خصوصاً والجبهة العربية عموماً.

... بعد العمل الذي قام به السادات، متحدياً به النهج الناصري، بإخراج الخبراء العسكريين السوفيات من مصر، غالباً ماكانوا يسألونني:

ـ ألم يظهر لكم بعد هذا العمل، الوجه الحقيقي، ألم تفهموا النهج الحقيقي الجديد للسادات؟ طبعاً بقيت هناك كثير من الأمور الدقيقة الهامة، ذات العلاقة والتي كان يحاول أن يتستر عليها السادات. وقد صارت معلومة لدينا، فيما بعد، إلا أن نظرتنا

وتصوراتنا العامة للخط السياسي الذي قررت القيادة المصرية، بزعامة السادات، السير عليه، كان قد بات واضحاً لنا. ومع هذا أشير إلى أننا لانبني سياستنا ـ كدولة عظمى ـ على المواقف الشخصية التي يتبعها بعض القادة.

الخط العام لحل الصراع الدائر في الشرق الأوسط، كان ومايزال هو تحقيق السلام العادل والشامل، لجميع دول هذه المنطقة ولايمكن تحقيق ذلك إلا بإعادة إسرائيل للأراضي العربية المحتلة، مع احتساب الحقوق العادلة والشرعية للشعب الفلسطيني، وإنشاء الدولة الفلسطينية، مع ضمان أمن شعوب هذه المنطقة بما فيهم الشعب الإسرائيلي.

.. في بداية تسلمه الرئاسة ـ كما أسلفت سابقاً ـ كان السادات قد رفع شعاراً: ـ «أن عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم بالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي» لكن كيف، ومتى، وبأية طريقة وعلى أي أساس؟!.. لم يقدم شرحاً لهذه الاستفسارات. «الحسم» وهذا كل شيء.

فيما بعد بدأت حاشية السادات الجديدة، بتقديم الشرح التالي:

ـ «إن عام ١٩٧١ سيكون عام الحسم، والمقصود بذلك، **أنه خلال هذا العام سيتم التوصل إلى اتخاذ قرار.. وعلى أساس هذا القرار، سيتم اتخاذ القرار الحاسم، لحل مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي..».**

طبعاً ـ كان هذا «الشرح» عبارة عن مراوغة وتلاعب في

الكلمات، ثم تم نقل «الحسم» إلى عام ١٩٧٢ ، وفي تبريره عن عدم اعتبار عام ١٩٧٢ ـ أيضاً ـ عاماً للحسم، ألقى السادات بالذنب على الاتحاد السوفياتي وحمله مسؤولية ذلك لعدم تقديمه المساعدات التي طلبها منه. أقبل عام ١٩٧٣ وتزايدت لقاءات السادات بالأمريكيين من وراء الكواليس.

النهج الأمريكي الذي كان تتبعه أمريكا، في الضغط على مصر، وبشكل رئيسي على السادات، كان يتمثل بالإيحاء الدائم للسادات والتأثير على تفكيره، بأن الولايات المتحدة الأمريكية، هي التي تستطيع أن تحرك قضية التسوية في الشرق الأوسط. أي أنها «تستطيع أن تضغط» على إسرائيل. لكن ليس «مجاناً»: ـ سيكون الثمن تقليص، وفيما بعد إلغاء وبشكل نهائي ما يسمى «بالتواجد السوفياتي» في منطقة الشرق الأوسط وبالدرجة الأولى في مصر.

كانوا قد أوحوا إليه: ـ «إذا تم إنهاء دور المستشارين السوفيات، فإن إسرائيل ستوقع معاهدة السلام مع مصر، وبشروط مرضية». وقد توضحت شروط هذه المساومة الأمريكية فيما بعد، لكن بعد أن ابتلع السادات الطعم.

في نهاية صيف ١٩٧٣ ، تم إرسال حافظ اسماعيل، مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مكلفاً بإجراء لقاءات سرية مع نيكسون وكيسنجر. ولكي يغطي على سرية سفره ولقاءاته، فقد مر على موسكو ولندن. كان يتم التحضير لشيء ما...

قبل هذا الحدث وفي أيار ١٩٧٣ ، كان السادات قد قام

بتجميع ـ قدر استطاعته ـ جميع السلطات في يده، فقد كان رئيساً مفوضاً ومطلق الصلاحيات، ورئيساً للاتحاد الاشتراكي العربي، ورئيساً اسمياً لدولة اتحاد الجمهوريات العربية، وصاحب لقب القائد العام للقيادة العسكرية العليا.

حافظ المصريون على اتصالاتهم معنا. لكنها كانت اتصالات مفككة، ومتباعدة يشوبها الفتور وينقصها الوضوح والإخلاص. وكانت تتناقص مع الزمن. بعد عودتي من إجازتي في ٢٢ أيلول، قمت بزيارة السادات، وتم إعلامي بأن مكان الاجتماع سيكون في «برج العرب» وهو مكان يقع إلى الغرب من الاسكندرية في وسط الصحراء.

أمام الفسحة الكائنة أمام الباب، كانت تقف مجموعة من السيارات الصغيرة تحمل إشارات خاصة يمكن الاستدلال من خلالها، بأنها سيارات مخصصة للضيوف الأجانب الذين يمثلون الحكومات الأجنبية. تبين لي بأن السادات، كان يقوم باستقبال نيلسون روكفيلر، وأمريكيين آخرين.

قام أعضاء السلك الدبلوماسي المصري باستضافتنا في إحدى القاعات، وطُلب منا أن ننتظر. مضى أكثر من عشرين دقيقة على الموعد المحدد للقائنا، فقلت عندئذٍ للضابط المناوب، إذا كان الرئيس مشغولاً اليوم، فليحدد لنا موعداً آخر للقائه. غادر الضابط القاعة التي كنا ننتظر فيها، وعاد بعد قليل قائلاً بأن الرئيس سينهي اجتماعه الآن.

بالفعل غادر الأمريكيون القصر من باب آخر كي لانلتقي

بهم. يبدو أن الرئيس كان مايزال تحت الانطباع الذي تركه الأمريكيون في لقائهم معه، والذي انتهى منذ لحظات قصيرة فقد بقي ينظر ـ لمدة طويلة ـ إلى جهة ما بجانبي، وكأنه في حالة من الشرود، أو أنه لايستطيع أن يركز انتباهه. في النهاية أخذ يختار كلماته بحرص:

ـ «إن تسوية قضية الشرق الأوسط، أصبحت أمراً لايطاق. ماذا يمكن أن يحدث لو تفجر الوضع؟ وماذا يمكن أن يفكر الآخرون بهذا الشأن؟».

أيعقل أن السادات قد بدأ يحضر للحرب؟.. لكن أين بقيت تأكيداته للجانب السوفياتي:

ـ بأنه سيبقى (بهذا الخصوص) على علاقة قوية معه، لتبادل الرأي والاستشارات؟. إن اتخاذ قرار الحرب، هو آخر مايُلجأ إليه في العلاقات السياسية الدولية وأن النتائج التي ستترتب على هذا القرار لايمكن التكهن بها.

إن كل دولة تثق بنفسها، بأنها ستربح الحرب. لكن الذي يحدث هو أن دولة واحدة، أو طرف واحد، فقط يربح الحرب، والأخرى تخسر. وفي أغلب الأحيان الدولة التي تبدأ الحرب تكون هي الخاسرة.

في ٣ أكتوبر (تشرين الأول)، كنت مع السادات، في بيته الواقع بالقرب من سفارتنا. حدثني عن الأعمال الاستفزازية، التي تقوم بها إسرائيل بشكل دائم ضد مصر. وعن احتمال أن ترد مصر

عسكرياً على هذه «الأعمال الاستفزازية الكبيرة»، «واللي بده يصير، خليه يصير..». وعندما سألته:

ـ هل يوجد لديكم تصور عن تحديد زمن وحجم الرد العسكري الذي ستقومون به؟.

أجابني السادات:

ـ إذا تطلب الأمر، بالتأكيد سوف يُعلمنا «في الوقت المناسب». مرة أخرى لم يجيب السادات بشكل واضح ودقيق، إلا أنه طلب مني ألّا أغادر القاهرة، وأن أكون في مكان يسهل الاتصال معه هاتفياً.

في اليوم الثاني أبلغت السادات، قرار موسكو بترحيل عائلات الخبراء السوفييت من مصر إلى الاتحاد السوفياتي. وطلبت منه التدخل لتسهيل أمر سفرهم. استطعنا في وقت قصير جداً أن نرحل ٢٧٠٠ طفل وامرأة سوفياتية، وبحدود ١٠٠٠ شخص آخر من ضمنهم عائلات وأطفال السلك الدبلوماسي السوفياتي العاملون في السفارة السوفياتية، وخبراء من الدول الاشتراكية الأخرى. قمنا بتسفيرهم من ميناء الاسكندرية، على ظهر سفن سوفياتية، أو ليلاً على ظهر طائرات ذات مواعيد اقلاع خاصة من مطار القاهرة قبل أن يتم اغلاقه. وكان يدير أعمال الترحيل والإخلاء مجموعة خاصة من موظفي سفارتنا، مع ملاحظة أن عملية الترحيل والإخلاء كان يجب أن تتم بشكل لايلفت الانتباه إليها.

لقد عشنا أياماً مرهقة، بحيث لم يكن يغمض لنا جفن أكثر من ساعتين إلى ثلاثة ساعات في اليوم. وتجدر الإشارة إلى المجهود الكبير الذي بذله المستشار الاقتصادي ن.أ. لوباتين، وممثل المكتب

التجاري أ.ن. لوباجيف، والمستشار ب.س. اكوبوف والسكرتير الأول ف.ن.يودين.

في ٦ أكتوبر (تشرين الأول)، استدعاني الرئيس إليه في قصر «الطاهرة»، وأعلمني بأن «الوضع مايزال متفاقماً وسيزداد تطوراً، لقد ازدادت الاستفزازات الاسرائيلية، ويمكن توقُّع حدثٍ ما، **خلال أربع ساعات**».

كان يريد أن يبقى السفير السوفياتي إلى جانبه. لكن كان هذا شيئاً مستحيلاً، لأن السفير يجب أن يبقى على اتصال دائم مع موسكو. وبالرغم من أن السادات قد ابتعد ـ مرة أخرى ـ عن إعطائي معلومات واضحة، رغم أننا حاولنا أن نسمع منه ذلك، لكنه بات من الواضح لنا أنه: ـ «ستبدأ اليوم الفعاليات الحربية. كيف ستبدأ؟ (في الوقت المناسب)، كما قال الرئيس سابقاً... لقد صرح الرئيس: خلال الساعات الأربع القادمة.. وهكذا نفذ الرئيس وعوده.. بأنه قبل أن يتخذ قراره بخصوص الحرب، سيناقش هذا الموضوع مع الجانب السوفياتي.. سيناقش.. وها هو ـ الآن ـ يعلمني «بقراره».. بعد أربع ساعات.. حقاً لقد نفذ وعده[1]..!!

أسرعت عائداً إلى سفارتنا. كان الوقت منتصف النهار ـ الساعة ١٤ تقريباً ـ عندما رن جرس الهاتف العمومي (للاتصالات الداخلية لمدينة القاهرة) في مبنى سفارتنا.. طلبتُ من فافا غوليزاده، أن يرد.

---

(١) يكتب هيكل في كتابه «الطريق إلى رمضان»، بأن موضوع إعلام أو عدم إعلام السفير السوفياتي بالعمليات الحربية، تعرض إلى نقاش ومجادلة طويلة.

تبين أن الرئيس السادات كان على الخط، وأنه يريد التحدث إلي. أصابتني الدهشة.

ـ الرئيس يستخدم الهاتف العمومي في حديثه معي، بدلاً من الهاتف الخاص!؟ رفعت سماعة الهاتف وكان صوت السادات مبتهجاً ومتهللاً:

ـ «حضرة السفير..! لقد صرنا على الضفة الشرقية من القناة!.. العلم المصري مرفوع على الضفة الشرقية من القناة! لقد عبرنا القناة!».

وهكذا فهمت بأن «حرب أكتوبر»، قد بدأت، ويبدو أنها ستؤثر تأثيراً كبيراً على تطور الوضع في الشرق الأوسط.

خلال شهر أكتوبر (تشرين الأول)، ولغاية بداية يناير (تشرين الثاني)، كنت أقابل الرئيس يومياً، وأحياناً أكثر من مرة في اليوم الواحد. وغالباً ما كنا نتحدث بالهاتف، وعملاً بأوامر الرئيس، فقد تم تركيب جهاز هاتف مغلق، خاص بالرئاسة من نوع «ب. ب. اكس» بيني وبينه.

لم يهدأ الاتصال سواء بالراديو أو الهاتف، بين سفارتنا وموسكو. وقد طبقنا نظاماً صارماً بخصوص إطفاء الإنارة والتعتيم، وتجهيز الملاجئ لحمايتنا، من خطر الغارات الجوية أو القصف المدفعي. وتم تخزين قسم من المواد الغذائية، ومياه الشرب ومصابيح بالبطاريات، شموع، أعواد ثقاب، مواد طبية. وبمساعدة بعض النساء المتبقيات، أقمنا نظاماً غذائياً مشتركاً في بناء المدرسة ـ بكلمات أخرى لقد انتقلنا لنعيش وفق نموذج الحياة في الثكنات

العسكرية. لم نكن ننام أكثر من ٣ ـ ٤ ساعات في اليوم.

العمليات العسكرية المصرية (في البداية)، كانت موفقة وناجحة، فخلال بضع ساعات عبرت القوات المسلحة المصرية قناة السويس. وثبتوا أقدامهم على الضفة الشرقية منها. عملية كهذه كانت تتطلب في أقل تعديل يوماً كاملاً. إن عبور قناة السويس وبهذه السرعة، كان أمراً لايصدق. فقد كانت التصورات بالنسبة لعدد القتلى (في عملية العبور)، أن لاتقل عن ثلث الجيش الذي سيقوم بعملية العبور. بينما لم تشكل عملياً، أكثر من ١٠ ـ ١٥٪.

لم تنجح المقاومة الإسرائيلية بصد الهجوم. وكانت مقاومة الوحدات الإسرائيلية تكاد لاتذكر، بفضل الصواريخ المضادة للطائرات، التي قامت القوات المصرية باستخدامها ضد المقاتلات الإسرائيلية والتي لم تتمكن من اختراق الدفاع الجوي المصري، والذي خلق مايسمى «مظلة حماية»، فوق الجنود والمدرعات الذين عبروا القناة.

أما بالنسبة للمقاومات الأرضية، فقد تمكنت بفضل صواريخ «مالوتكي» من إصابة الأهداف الإسرائيلية إصابات دقيقة، وسببت خسائر فادحة للدبابات الإسرائيلية، وأثبت سلاح المشاة الذي تدرب في أصعب الظروف البيئية مقدرته على النصر مستخدماً الأسلحة الرشاشة والمدرعات السوفياتية الصنع.

كان السادات يعيش حالة من الفرح والانشراح العظيمين وهو يشير في حديثه اليومي معي، في تلك الساعات العصيبة بالشكر والامتنان للاتحاد السوفياتي ويؤكد: «إنه سيأتي اليوم الذي

سأتحدث فيه عن المساعدة العظيمة التي قدمها لنا الأخوة السوفيات!..». وفي هذه المناسبة أود أن أشير إلى أن الموضوع لم يكن ـ فقط ـ موضوع تفوق التكنولوجيا الحربية السوفياتية، التي يستخدمها المقاتل المصري، على التكنولوجيا الحربية التي يستخدمها المقاتل الإسرائيلي، بل إن العمل المخلص والدؤوب الذي قام به المستشارون العسكريون السوفيات والخبراء والفنيون لنهضة القوات المسلحة المصرية التي انهارت في ١٩٦٧ ، من تدريب وإعداد المقاتل المصري بما فيها مخططات الهجوم قد أثمر.

بدأ المصريون الحرب بنجاح، لكن شيئاً ما أحبطهم..! وكبح هجومهم العنيف. وتظهر جملة تساؤلات لايمكن إلا أن نتساءلها:

ـ «لماذا لم تستطع المخابرات الإسرائيلية ذات المستوى الجيد، من اكتشاف الحشود المصرية على الطرف المصري من القناة؟ (وبغض النظر عن إمكانيات شريكتها ـ المخابرات الأمريكية ـ ذات التكنولوجيا المتطورة). وهل أن الهجوم المصري ـ السوري كان مفاجئاً لإسرائيل؟ لماذا قامت القيادة الإسرائيلية بتركيز وحشد قواتها على حدودها الشمالية ـ على الحدود السورية ـ علماً بأن القوة العربية الرئيسية، لم تكن في الشمال، بل في مصر أي على الحدود الجنوبية لإسرائيل؟

ـ لماذا لم يسمح السادات للملك حسين، بالإنضمام إلى الأعمال الحربية، علماً أن الأردن، تستطيع أن تلعب دوراً كبيراً في قطع الطريق والإمدادات العسكرية على الجيش الإسرائيلي، سواء أثناء توجهه إلى الحدود السورية أو إلى الحدود المصرية؟

ـ لماذا لم يدِ الجيش الإسرائيلي المرابط على الضفة الشرقية من قناة السويس مقاومة تليق بالجندي الإسرائيلي ـ الأسطورة ـ وبعد بضع ساعات تم اعطاءه أمراً بالتراجع وترك أمر التراجع لتقديراته الشخصية؟

ـ كيف يمكن شرح (على سبيل المثال)، ما نشرته وكالة الأنباء المصرية في (٢ أكتوبر) عن اتخاذ الاستعدادات الحربية للجيشين المصري الثاني والثالث؟

ـ أيعقل أن المخابرات الإسرائيلية وعملائها في مصر، لم يلفت انتباههم، إخلاء أو تسفير أطفال ونساء الخبراء الأجانب من مصر؟

هناك الكثير من التساؤلات المتعلقة بقيام «حرب اكتوبر ١٩٧٣»، بل ان كثير من المحللين والباحثين استغرقهم التفكير: «ـ ألم يكن وارداً بأن الطرفين المتحاربين كانا على «اتفاق»، مسبق بخصوص هذه (الإجراءات) العسكرية؟» إذا كان هذا وارداً فإنه يمكن التكهن بمعرفة النهاية السياسية لهذه الحرب، وهذا ماحدث لاحقاً ـ قطع مباحثات السلام في جنيف، ومعاهدة (كامبد ديفيد).. الخ.

... في نفس الوقت الذي قامت به القوات المسلحة المصرية بشن هجومها على إسرائيل، قامت القوات المسلحة السورية ـ أيضاً ـ بهجومها على الجيش الإسرائيلي وتمكنت من طرده من منطقة الجولان السورية المحتلة.

تقدم المصريون مسافة أخرى إلى الأمام وتوقفوا.. (!)، هذا التوقف سمح للقيادة الإسرائيلية بتركيز مقاومتها ثم هجومها على

الجيش السوري، واستعادت المواقع التي كانت القوات السورية قد حررتها، واتجهت بقواتها إلى دمشق، فيما كانت قاذفات قنابلها تقصف وبوحشية المدن والمرافئ السورية. بينما بقيت القوات المصرية مرابطة في مواقعها دون أن تتقدم، علماً بأنه كان قد بات واضحاً أن إسرائيل، ستقوم بعملها العسكري العكسي، وهو أن تضرب خصومها، كل على حدة وقد قررت أن تبدأ بسوريا ثم مصر.

مازال هذا السؤال يتبادر إلى ذهني: - «لو أن الجيش المصري استمر في تقدمه.. إنني واثق تمام الثقة بأن اسرائيل، ماكانت لتستطيع الحرب على جبهتين لكن.. كان جواب السادات على تساؤلي بخصوص المجرى العام لخطط القتال - في غاية الانفعال والغضب - «بأنه لن يسمح لنفسه بالركض على طول وعرض سيناء»!!، و«أن هدفه هو أن يظهر تفوقه - فقط - على المقاتل الإسرائيلي»!!، و«أن يثبت هذا الشعور لدى المقاتل المصري»!! و«أن هدفه ليس احتلال الأرض»!! و«أنه سيبقى هنا بانتظار القوات الإسرائيلية الرئيسية (!) كي يحطمها». لقد أذهلنا هذا «المنطق» الحربي الغريب من نوعه.. بل البعيد عن أبسط قواعد التكتيك العسكري. ولأن الجيش المصري لم يكن بعيداً عن مضائق (متلا والجدي)، بل أن الطريق إليها كان مفتوحاً فعلاً، وإن أبسط العسكريين إدراكاً، يدرك بأن من يستولي أو من يملك هذه المضائق، فإنه يسيطر على كامل سيناء ولكن..!!

في ٩ - ١٠ أكتوبر، بدأ السوريون بالتراجع، والقوات المصرية مازالت في مواقعها دون أن تتقدم. بدأنا نفهم بأن ما تقوم به مصر

هو أمر لاعلاقة له بالحرب... بل إنه بعيد جداً عن ألف باء القتال أو التخطيط العسكري، وتشكلت لدينا قناعة بأن توقفها هذا ـ عن التقدم العسكري لإحتلال المضائق ـ **هو موقف سياسي أكثر من أن يكون موقفاً حربياً وبأنهم قد توقفوا بعد أن نفذوا الشيء المطلوب منهم.** بالطبع ان أسباب عدم التقدم والقتال لم يكن من رغبات المقاتل المصري الشريف ـ الذي خذلته قيادته ـ بل لأن القيادة المصرية لم تكن تريد استثمار الخطط الحربية وقد استعاضت عنها بخطط سياسية.

مع نشوب القتال بدأ نشاط دبلوماسي كبير يشتد في أروقة منظمة الأمم المتحدة وعواصم كثير من الدول. وقد ظهرت ورقة عمل أمريكية موجهة إلى مجلس الأمن تطالب بإيقاف الحرب فوراً، وعودة الجيوش المتحاربة إلى مواقعها قبل يوم ٦ أكتوبر. وبالرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية، كانت تدرك أن ما اقترحته ليس مطلباً قانونياً في المنطق السياسي والقانون الدولي، لأن تنفيذ العرب لما طلبته أمريكا، يعني أنهم موافقون على «شرعية وتكريس الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية». لقد قام العرب بتحرير أرضهم ولم يعتدوا أو يحتلوا أراضي الغير، ولهذا فإن هذا المشروع قد تم رفضه بل واسقاطه. لكن يبدو أن أمريكا أرادت أن تكسب الوقت بطرحها لهذا المشروع لتمد اسرائيل بجسر جوي من الأسلحة المتطورة. وهذا ما تحدث عنه كيسنجر في مذكراته اليومية.

طرحت هيئة الأمم المتحدة قراراً، تطلب فيه وقف إطلاق النار، وتوقيف العمليات العسكرية عند المناطق التي وصلت إليها

الجيوش المتحاربة. وفي نفس الوقت إعادة النظر بمقرراتها السابقة بخصوص جلاء القوات الإسرائيلية عن الأراضي العربية المحتلة.

تصوروا الآن أهمية هذا القرار، في ذلك الوقت كانت سوريا قد تمكنت عملياً من استعادة جميع أراضيها التي احتلتها اسرائيل في عدوان حزيران، بينما استطاعت القوات المسلحة المصرية أن تحرر الضفة الشرقية من القناة وعلى عرض ١٢ ـ ١٥ كم، وعلى امتداد القناة. لقد كان القرار لصالح العرب. كما أن وقف إطلاق النار كان بمثابة حظٍ طيبٍ ومناسبٍ لاستكمال التسوية السلمية، على المبادئ العادلة لحل الصراع العربي الإسرائيلي. إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية ومعها.. مصرا، وقفتا وبحماس ضد هذا القرار. إن «هذا التطابق» في القرار بين أمريكا ومصر يدعو إلى الاستغراب، خصوصاً لمعالجة الوضع في ذلك الوقت، علماً بأن مصر ـ وقتها ـ كانت قد أوقفت تقدم جيوشها فور عبورها القناة!! لو أنها أكملت حربها وتقدمها في تحرير أراضيها لاختلف الوضع ولكان موقفها مبرراً وواضحاً، أما أن تتوقف ومن تلقاء نفسها عن الاستمرار في تحقيق الأهداف الموضوعة أمامها[١]، بينما كانت أمريكا، تأمل من الجيش الإسرائيلي أن يحرز نجاحاً أكبر، ولهذا فقد مدت جسراً جوياً من المعونات العسكرية إلى إسرائيل.

بعد أن وصلت الإمدادات العسكرية إلى إسرائيل، من خلال الجسر الجوي الذي أقامته أمريكا من قواعدها العسكرية المنتشرة في

---

(١) من خلال مذكرات السادات وكيسنجر، تبين بأن المباحثات المصرية الأميركية والجارية من خلف الكواليس كانت تتزايد وتتسارع.

أوروبا، شددت إسرائيل من هجومها على سوريا. وكان رد السادات على تساؤلاتنا رداً جافاً وغاضباً:

ـ «إذا كانت سوريا لاتستطيع أن تنتقل إلى الهجوم، فلتدافع عن نفسها (وكأن الدفاع برأيه قضية سهلة)، أو لتحول أسلوبها إلى حرب الفدائيين وتساعدها طبيعة جبهتها على ذلك...» تبين لي بأن الضغط الذي تواجهه الجبهة السورية، لم يكن يثير اهتمام السادات، ولاحظنا **بأنه يريد أن يماطل ويمطمط في الزمن.. وكأنه كان بانتظار شيء ما. لكن ماهو هذا الشيء؟** وماذا كان يقصد السادات بعدم السماح للقوات المصرية من التقدم بعد أن عبرت القناة وماذا يريد بأسلوب المماطلة!! خلال هذا الوقت بدأت القوات الإسرائيلية بقصف مصر وعبور القناة إلى الضفة الغربية منها.

في ١٦ أكتوبر، وصلت أخبار غير متوقعة:

ـ «تمكنت ٥ ـ ٦ دبابات إسرائيلية من العبور إلى الضفة الغربية لقناة السويس!..».

قبل هذا الحدث بأسبوع عندما كنا نتدارس خطوط القتال والوضع على الضفة الشرقية للقناة، لفتنا انتباه القادة المصريين إلى وجود ثغرات كبيرة بين أجنحة الجيش المصري المرابط على الضفة الشرقية للقناة. ونظراً لإلغاء دور ووجود المستشارين العسكريين السوفيات في مصر، فقد أجاب العسكريون المصريون على أسئلتنا باختصار:

ـ «لقد تمت المصادفة واعتماد هذا التنظيم القتالي للجيوش المصرية».

قامت الدبابات الإسرائيلية متسترة بالليل بعبور القناة إلى الجانب الأفريقي (المصري) وبالضبط من تلك المواقع والثغرات التي أشرنا إليها.

قدم السادات مفسراً لنا ذلك:

ـ «أن هذه الدبابات ما هي إلا عبارة عن (مجموعة تخريبية محكوم عليها بالفناء). ولا أعرف لماذا أضاف عبارة (مناورة سياسية اسرائيلية).

في مساء ١٦ أكتوبر وصل أ.ن. كوسيغين، إلى القاهرة لإجراء المشاورات مع السادات. عندما كنا في المطار بانتظاره، سألت مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي حافظ اسماعيل، عن مصير الدبابات الاسرائيلية التي عبرت القناة إلى الطرف المصري. أجابني: ـ «انها قصة مزعجة ولاتستحق التفكير بها لأنها من اختصاص العسكريين». وكما ثبت فيما بعد بأن العسكريين لم يتخذوا أية اجراءات للقضاء على هذه الدبابات تنفيذاً (لأوامر عليا)!!، وبهذا الشكل أصبح الوضع العسكري على الجبهتين في غير صالح العرب. إلا أن السوريين استطاعوا وبصعوبة كبيرة وقف التقدم الإسرائيلي الزاحف على دمشق.

كانت التوجهات باعتبار زيارة أ.ن.كوسيغين زيارة سرية، ومن أجل السماح في الدخول إلى مطار القاهرة الدولي، وزعت بطاقات خاصة كتب عليها «خاصة بزيارة رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي»، وقد ثبتت على السيارة التي ستقله من المطار العلمين المصري والسوفياتي ورافقته مجموعة من راكبي الدراجات النارية.

نظر أ.ن.كوسيغين إلى الليل أو كما يقولون إلى القاهرة

المحاربة ـ أثناء عبورنا شوارعها. لاحظ كوسيغين، عدم الجدية في تطبيق نظام التعتيم بالنسبة للإنارة، امتلأت الشوارع بالمواطنين وكأنهم يعيشون يوماً عادياً.

كانت الحرب بالنسبة للمواطنين العاديين البسطاء تجري في مكان ما بعيداً، هناك قرب القناة. وقد قادها الضباط العسكريون لهدف ما. كانت معلومات المواطن المصري البسيط ـ عن هذه الحرب ـ ضعيفة للغاية. لم تُذكر له أسماء الأبطال الذين شاركوا في الحرب وكان عددهم كبيراً. كما أنهم لم يكونوا يعرفون وجهة النظر السوفياتية، (قال لي السادات: بأننا اتخذنا هذه الإجراءات من باب السرية والحفاظ على الأمن)، يا لها من حرب غريبة الأطوار.

تبادل كوسيغين والسادات وجهات النظر من خلال اجتماعهم المنفرد، ثم اجتماعاتهم بوجود السفير السوفياتي ومعاون الرئيس.

أراد السادات أن يعطي انطباعاً عن صداقته، لكنه أجاب سلباً وبعناد عن حدوث أي تغيرات سيئة في مجرى القتال، وطالب (بضمانات) بخصوص الاعتداءات الإسرائيلية مستقبلاً. أما عن الخرق الذي قامت به الدبابات الإسرائيلية عبر قناة السويس إلى الضفة الغربية منها، فقد أسماه مرة أخرى بأنه ليس إلا عبارة عن «مناورة سياسية».

بعد مباحثات مطولة لمناقشة الوضع الراهن، والنظرة السياسية المصرية قال السادات:

ـ «بأنه ربما سيوافق على وقف إطلاق النار، إذا وافقت

إسرائيل بدورها على تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، والصادر عن هيئة الأمم المتحدة في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٧ والقاضي بانسحاب الجيش الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة وإلى أن يتحقق الانسحاب، يطلب السادات كضمانة وجود «حاجز» من القوات السوفياتية والأمريكية.

بعد أن غادر أ.ن. كوسيغين، أخذت تردنا أخبار أكثر سوداوية:

ـ «لقد ازداد عدد الدبابات الإسرائيلية التي عبرت قناة السويس إلى الضفة الغربية منها، فقد وصل عددها إلى ٣٠ ـ ٤٠ دبابة، ثم زاد العدد إلى ١٥٠ ، وقد احتلوا مدرجاً حربياً ميدانياً، واستطاعوا بنجاح أن يوسعوا رأس جسرهم، وخاصة باتجاه الجنوب ليحاصروا المصريين الذين عبروا القناة وليقطعوا طريق القاهرة دون أن يلاقوا مقاومة جدية.

في جلسات ١٩ ـ ٢٠ اكتوبر (مع السادات)، تقصدنا وبإصرار أن نسأل عن الخرق الذي قامت به القوات الإسرائيلية للقوات المصرية وعبرت من خلاله إلى الطرف المصري من القناة. وقد تمكن الإسرائيلين من إقامة جسر عبر القناة ومازالت القطعات العسكرية الإسرائيلية، تعبر الجسر ويتزايد عددها باستمرار. وتشهد على ذلك الصور التي قامت الطائرات بالتقاطها. بماذا سيكون رد الرئيس؟.. أجاب السادات بضجر وانزعاج «بأن العبور الإسرائيلي من وجهة النظر الحربية لايشكل خطراً أو تهديداً عسكرياً، إلا أنه يشكل أهمية من الناحية السياسية فقط. (ثانية!)، ولاحاجة لقلق الأصدقاء السوفيات». بات الوضع واضحاً بالنسبة إلينا، أن الرئيس

يخبئ نواياه الشخصية عنا، وأنه مصمم على تنفيذها... ومن أجل تحقيق نواياه سيضحي بدماء وحياة آلاف الجنود والضباط المصريين.

... كانت الساعة بحدود الواحدة وخمس وأربعون دقيقة من ليل ٢١ أكتوبر، عندما رن جرس الهاتف. طلب مني الرئيس المجيء إلى قصر الطاهرة وبسرعة.

أسرعنا في ليل القاهرة أنا و ف. غوليزاده، ونحن نحاول أن نحزر ماذا ينتظرنا هذه المرة. في طريقنا صادفنا عدداً من الرافعات ومصابيح الإنارة مدهونة باللون الأزرق، سيارة اسعاف كانت تنقل جنوداً مبعدين عن الخدمة بسبب إصابتهم، كثيراً منهم توفي، في سبيل ماذا..؟

ولجنا إلى القصر ذو الأنوار المعتمة، لم يأخذونا إلى إحدى غرف الاستقبال كالعادة بل إلى شرفة الطابق الأول، كانت الأنوار مطفئة والقمر ينير قسماً من الشرفة التي تطل على حديقة ليست كبيرة. كان السادات جالساً (على دربزين من المرمر) وراء طاولة صغيرة، وقف إلى جانبها عبد الفتاح، وزير الامدادات العسكرية، حاملاً بيده كالعادة دفتراً كبيراً جاهزاً لتدوين محضر الجلسة، وبوجود حافظ اسماعيل الذي كان يدخن بعصبية وتوتر. لم تكن هيئة الرئيس تبعث على الإطمئنان: ـ بذته العسكرية مجعده، وقد التوى طرف قبتها، كان يحاول أن يرسم على وجهه علامات الهدوء وحتى الثقة. بدأ حديثه بالانكليزية:

ـ «في منتصف هذه الليلة، قام العسكريون باستدعائي إلى مركز القيادة وقدموا لي تقريراً عن الوضع. بعد هذا قررت أن اقوم باستدعائكم «تَقَصَّدَ أن يعمل وقفة في حديثه، ليسحب نفساً من

غليونه، ثم تابع) بإمكاني أن أحارب إسرائيل، لكنني لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة الأمريكية. مصر لاتستطيع أن تجابه أمريكا». كالعادة (عندما كان يتحدث بالانكليزية)، كان يلفظ الكلمات بشكل سليم مستخدماً العبارات السهلة. في البداية كان صوته واضحاً، فيما بعد صار صوته متهدجاً. ومنفعلاً:

ـ «لا أستطيع أن أتغلب على هذا الدفق الأمريكي من الدبابات والطائرات، فمهما أبدنا منهم لن نستطيع أن نقضي عليهم. البارحة فقط استطعنا أن ندمر لهم مئتي دبابة، لكن سرعان ما ظهر عوضاً عنها دبابات أخرى. لا أستطيع أن أجابه الولايات المتحدة الأمريكية (وسحب نفساً آخر من غليونه) أرجوكم أن تنقلوا إلى موسكو، وبقدر ما تستطيعون من السرعة أن يعملوا على وقف إطلاق النار، فلديكم اتصالاتكم مع الأمريكان وأرجوا أن تستخدموا تأثيركم وبأسرع وقت ممكن.

ـ لقد فهمت ـ أجبته قدر استطاعتي محتفظاً بهدوئي وأردت أن أكرر: ـ هل تطلبون يا سيادة الرئيس وبقدر الإمكان من السرعة إعلام موسكو بقبولكم قرار وقف إطلاق النار، مع احتفاظ كل جانب بقواته في المناطق التي وصل إليها؟

أجابني بعد أن هز رأسه: ـ نعم.

لقد أردت (متقصداً) أن أتأكد من رغبته في الموافقة على بقاء المجموعات العسكرية الإسرائيلية التي قامت بخرق القوات المصرية وعبرت إلى الضفة الغربية من قناة السويس، وبقائها هناك؟ ـ فكان جوابه: ـ نعم.

لقد كنت أدرك بأنه لم يبق أمامه إلا أن يقول: ـ نعم.

ـ هل هذا ماكان ينتظره السادات منذ بداية الحرب!!؟

أسرعنا إلى السفارة لنتصل مع موسكو، وبعد مرور ساعتين اندفعنا مرة أخرى عائدين لمقابلة الرئيس. لكي نؤكد على بعض الاستفسارات المتعلقة بموقف مصر. لكن الرئيس كان قد نام (!).. وعندما طلبنا وبإلحاح إلى ياوره، بضرورة إيقاظه من النوم شعر بأن طلبنا هذا غير معقول، لكنه وافق في نهاية الأمر ـ عند اصرارنا ـ وأيقظه.

استقبلنا السادات في غرفة أخرى مجاورة لغرفة نومه، كان مرتدياً روباً فوق منامته، جلس متربعاً فوق الديوانة، وكان وجهه مورداً وعيناه تلمعان، ولم تفارق الابتسامة شفتيه. ان من كان ينظر إليه في تلك اللحظة، كان سيفهم مباشرة أن الحرب بالنسبة إليه قد انتهت!!..

بعد المباحثات السوفياتية ـ الأمريكية المعقدة والتي حاول الأمريكيون، بتقصُّد، المماطلة فيها كي يمنحوا الاسرائيليين إمكانية التعمق أكثر في الأراضي المصرية وتثبيت مواقعهم إلى جانب ذلك، أن يضعوا مصر في وضع محرج أكثر. ففي ٢٢ أكتوبر، اتخذ مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨ ، الصادر عن هيئة الأمم المتحدة، القاضي بوقف اطلاق النار، خلال فترة لاتتجاوز ١٢ ساعة (كان كيسنجر مصراً على إطالة الوقت من ١٢ إلى ٤٨ ساعة، وعندما واجهناه بموقفنا المتشدد وافق على التنازل من ٤٨ إلى ٢٤ ساعة وأخيراً وافق على ١٢ ساعة). وقد بقينا على اتصال دائم مع السادات طوال فترة المباحثات وقد كان سعيداً جداً للنتيجة التي وصلناإليها. ـ لماذا أكتب هذه التفاصيل الدقيقة؟ ـ لأن

السادات والمقربين إليه قاموا فيما بعد بنشر أكاذيبهم عن موقف الاتحاد السوفياتي خلال «حرب أكتوبر» مدعياً بأن الاتحاد السوفياتي لم يقدم المساعدات اللازمة لمصر و«قد ضغطوا عليه» وأجبروه على وقف العمليات العسكرية «الناجحة» التي كان قد أعدها لمحاربة إسرائيل وبذلك «أفقدوه النصر» الذي وعد به الشعب المصري عندما «طلبوا منه وقف إطلاق النار».

إن ما حاولوا اخراجه من كلام للناس ـ كي يصدقونهم ـ هو كلام كاذب، لأن مصر لم تتشاور مع الاتحاد السوفياتي بخصوص فتح النار وبدء العمليات الحربية، كما أنها لم تبلغه عن موعد وزمن بدء العمليات العسكرية مسبقاً إلا قبل أربع ساعات فقط ولم يكن تبليغها عن ذلك رسمياً بل هذا ماخمنّاه.. ومع هذا بقي الاتحاد السوفياتي على موقفه الصديق من مصر. وقدم لها المساعدة التي طلبتها، وذلك لأن مصر أرادت أن تحرر أراضيها المحتلة ولم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي إلا أن يساعدها، فقد قدم الاتحاد السوفياتي لمصر المساعدة الفورية والمتنوعة (وأبناء القاهرة يتذكرون جيداً، بعد إغلاق ـ مطار القاهرة الدولي ـ ماكانوا يسمعونه من هدير طائرات النقل السوفياتي الضخمة من نوع «آن» وهي تطير في سماء القاهرة كل نصف ساعة..»[1].

أؤكد أننا حافظنا على اتصالنا الدائم مع الرئيس السادات خلال فترة الحرب وكنا نتباحث بالأمور السياسية ذات العلاقة

---

(١) ادعى السادات فيما بعد، وبعد أن اتخذ وضعية الجد في ملامحه وتعابير وجهه، بأن مصر لم يصلها من الاتحاد السوفياتي أي شيء طوال فترة الحرب.. باستثناء حقيبة واحدة معبأة بقطع الغيار..!

بالحرب، وعندما طلب الرئيس مني أن أتدخل وبسرعة لدى حكومتي لوقف القتال، تمكن الاتحاد السوفياتي مستخدماً موقعه الدولي في تحقيق ماطلبه منه الرئيس السادات.

مع هذا، لنعود إلى القرار ٣٣٨ ، والقاضي بوقف إطلاق النار، يبدو أن الإسرائيليين كانوا معتمدين على النصائح الأمريكية، فلم يوقفوا القتال واستمروا بهجومهم على القسم الغربي من القناة وبشكل خاص نحو الجنوب وبذلك استطاعوا أن يقطعوا الطريق على ٤٠ ألف عسكري من الجيش المصري الثالث، المرابط في القسم الشرقي من القناة، بعد أن قاموا بعبورها مما أدى إلى تعقد الوضع العسكري والسياسي بشكل كبير.

كانت الأيام التي تلت ٢٢ أكتوبر أياماً مملوءة ومشبعة بالأحاديث الهاتفية المقلقة والمزعجة مع الرئيس السادات، إضافة إلى اللقاءات والمراسلات. ففي ٢٣ أكتوبر اتصل السادات معي مرتين، يطالبني وبشكل رسمي بالإسراع في «التدخل العسكري الروسي» لصالح مصر، لإلزام اسرائيل بتنفيذ قرار مجلس الأمن وإيقاف عملياتها الحربية.

المباحثات التي جرت بين موسكو وواشنطن، أدت بتاريخ ٢٤ أكتوبر إلى صدور قرار آخر من مجلس الأمن رقم ٣٣٩ يطلب فيه مجدداً وقف إطلاق النار فوراً، وعودة جميع القوات المتحاربة إلى مواقعها، كما كانت في يوم ٢٢ أكتوبر.

تجاهلت إسرائيل هذا القرار أيضاً، واستمرت قواتها بالتقدم إلى نهاية قناة السويس. اتصل السادات معي هاتفياً قائلاً:

- «**إنني أطلب منكم وبشكل رسمي أن يرسل الاتحاد السوفياتي اليوم ليلاً، جيوشاً أو مراقبين سوفيات**». وفي الوقت نفسه تقدم السادات أيضاً بالطلب نفسه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أذاع راديو القاهرة هذا النداء عبر بثه الإخباري: - ((إن هذا الطلب موجه إلى كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية» وكما صار معروفاً فيما بعد من خلال مطالعة مانشر في الصحف فإن الأمريكيين، كانوا يتقصدون - متذرعين بشتى الحجج - الابتعاد عن الجواب الواضح من جهة، ومن جهة أخرى الابتعاد عن المشاركة المكثفة في المباحثات، التي كانت موسكو تحاول الاسراع بها مع واشنطن. وبدأ السادات شيئاً فشيئاً يفقد صبره، وأخذ يدعو الأمريكيين بالدجالين.. وصار يشعر وكأنهم قد خدعوه في شيء ما، أو كأنهم «يعاقبون» مصر على ما أنجزته قواتها المسلحة من أعمال عسكرية ناجحة في بداية هجومها.

عندما قامت القوات الإسرائيلية بقطع السويس بشكل كامل، وواصلت تقدمها نحو جنوب هذه المدينة، تقدم السادات مرة أخرى باستعطاف إلى الاتحاد السوفياتي بأن يتدخل مع الولايات المتحدة الأمريكية وإن لجأت هذه - مرة أخرى - إلى التلكؤ والمماطلة، فقد دعى الاتحاد السوفياتي للقيام بمفرده في هذا العمل العسكري.

أصبح الوضع حرجاً للغاية. وقد أعلمت القيادة السوفياتية، الإدارة الأمريكية بجاهزيتها للتدخل فوراً لتلبية طلب مصر. يبدو أن القياديين في واشنطن وتل أبيب قد أدركوا، بأن الاتحاد

السوفياتي جاد في قراره، وأنه لايتحمل «المزاح» ولذلك عليهم أن يمتنعوا عن تلاعبهم هذا معه، وقد أدى ذلك إلى لجم القوات الإسرائيلية فأوقفت هجومها فوراً. وبهذا فإن الاتحاد السوفياتي قدم مساعدة لايمكن تقديرها لجيش مصر، وهكذا انتهت الحرب وكما أرادها السادات. أرادت أمريكا أن تغطي عن إحباطها أمام جدية القرار السوفياتي، فأعلنت حالة من الاستنفار في جميع قواعدها الحربية المنتشرة في دول مختلفة ودون أن تحيط حكومات هذه الدول التي تتواجد فيها قواعدها الحربية بعمل مسبق، وراحت تستعرض عضلاتها كما تشاء. وقد أشار السادات عند حديثه معي في ٢٥ أكتوبر معبراً عن هذا التصرف الأمريكي، بأنه حالة من التخويف والابتزاز.

على العموم، قليلون هم الذين استرعى انتباههم، أصداء الانذار الأمريكي الذي تقدم به كيسنجر باهتاً.

ـ «ان هذه (الأجراس)، كانت عبارة عن قرار أمريكي يدعو فيه السوفيات إلى (الانسحاب)!..». لاحقاً وأثناء إحدى زيارات كيسنجر إلى القاهرة سألته:

ـ عن الأسباب التي دعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى إعلان حالة الطوارئ في قواعدها الحربية المنتشرة خارج حدودها، علماً بأنه لم يُعلن أحد تهديده لها؟

أجابني كيسنجر محرجاً ودون رغبة منه:

ـ «يبدو أنها كانت حالة من الضغط النفسي لم يستطع أن يتحملها نيكسون». في ٢٧ أكتوبر، أخبرني حافظ اسماعيل، بأنه

قد تلقى رسالة من هنري كيسنجر يدعوه فيها للتشاور مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا صارت الولايات المتحدة الأمريكية ـ وبشكل مكشوف ـ تشد مصر إلى دورها الوساطي في منطقة الشرق الأوسط. طبعاً ـ تقدمت مصر بهذه المعلومة إلينا وكان قصدها من ذلك محاولة التعرف إلى رد الفعل السوفياتي على هذه المرحلة... أجبته:

ـ إذا كانت مصر تريد (مستقبلاً) أن لاتعتمد على المباحثات السوفياتية ـ الأمريكية، بخصوص وقف إطلاق النار، بل فقط على الدور الأمريكي، فإن موقف مصر سيكون ضعيفاً إلى درجة واضحة. لأن الولايات المتحدة الأمريكية مرتبطة بالتزاماتها أمام الاتحاد السوفياتي، وليس أمام مصر...!

لا أعرف لماذا بدأ حافظ اسماعيل يتحدث وبحرارة عن ضرورة تلافي المحاولات الأمريكية والتي تحاول أن تقوم أمريكا بها، لتصبح وسيطاً وحيداً بين مصر وإسرائيل. في تلك الأيام أرسل السادات فهمي ـ بعد أن كلفه بمهام وزير الخارجية ـ وبسرعة إلى واشنطن لإجراء مباحثات سرية مع أمريكا، بالرغم من وجود وزير الخارجية ـ الزيات ـ هناك..

... على ضوء الدعوة الموجهة لعقد مؤتمر دولي، ومن أجل التشاور مع مصر حول هذا الموضوع وصل إلى القاهرة ف. ف. كوزينتسوف، وكان وقتئذٍ يشغل منصب النائب الأول لوزير خارجية الاتحاد السوفياتي. أشار السادات أكثر من مرة إلى حاجة مصر الآن أكثر من أي وقت مضى إلى أن يعمل الجانبان السوفياتي

والمصري معاً بتنسيق وتوافق تامين، وتأمل مصر من الاتحاد السوفياتي الدولة العظمى، أن تشارك نظيرتها الولايات المتحدة الأمريكية وعلى جميع مستويات المباحثات المتعلقة بالإعداد للمؤتمر الدولي.

طبعاً لم يتحدث السادات، عن طبيعة المباحثات التي كان يجريها فهمي في أمريكا رغم ماتفوه به من الحديث السابق... وفجأة وصلنا نبأ عن وصول هنري كيسنجر في ٧ تشرين الثاني!.

في ذلك اليوم عقد السادات وكيسنجر اجتماعين منفردين. وفي المساء أذاع راديو القاهرة نبأ عن: - «الوصول إلى اتفاق بخصوص إعادة العلاقة الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية!» أستكون هذه نتيجة الحرب!؟

في مساء ٧ تشرين الثاني، قام فهمي بدعوة جميع أعضاء الحكومة المصرية وبعض السفراء: (سفير الاتحاد السوفياتي، اسبانيا «الممثلة للمصالح الأمريكية»، بريطانيا، وفرنسا ومحمد حسنين هيكل)، إلى حفل عشاء على شرف المستشار الأمريكي كيسنجر.

صراحةً لم تكن لدي رغبة لتلبية هذه الدعوة، بالرغم من أن الأمريكيين قد نقلوا إلى سفارتنا خبراً مفاده أن كيسنجر يرغب بمقابلتي - والأسباب التي كانت تدعوني لعدم تلبية هذه الدعوة، هو أن المصريين في الأيام الأخيرة الماضية كانت تصرفاتهم معنا بعيدة عن روح الصداقة، وعلى شيء من الخشونة والوقاحة، بما فيهم فهمي.

كنت آخر من جاء لمأدبة الطعام. وعند دخولي إلى القاعة،

كانت وجوه المدعوين تعيش حالة من الضجر، وهم يحملون بأيديهم كؤوس الويسكي الدافئة.

في وسط القاعة رأيت كيسنجر، كان واقفاً يتحدث بفتور إلى سفير إسبانيا. قام مسؤول التشريفات بتقديمي، رأيت كيف أن النشاط قد دب في جسد كيسنجر، وبعد سلسلة من الجمل الدبلوماسية اللطيفة أبدى اهتمامه بتقييم الوضع في منطقة الشرق الأوسط. أجبته:

ـ بغض النظر عن وقف إطلاق النار، فإن الوضع مازال معقداً، وقابلاً للانفجار، لهذا يجب أن تتخذ إجراءات سريعة وفعالة. ومن الضروري أن تتوقف إسرائيل عن حماقاتها أو تظاهرها بالغباء من خلال تصريحها: ـ «أن لا أحد يعرف الآن، أين كان خط تواجد الجيش الإسرائيلي في يوم ٢٢ أكتوبر». أي إلى أين يجب أن تنسحب إسرائيل بجيوشها، تنفيذاً لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ و ٣٣٩ ، ثم تابعت حديثي: ـ يمكننا اطلاعهم على خط النار ليوم ٢٢ أكتوبر من خلال الخرائط العسكرية. ومتى انسحبت اسرائيل بجيوشها إلى خط النار ليوم ٢٢ أكتوبر، فبشكل أوتوماتيكي ستتلاشى مشكلة إمداد الجيش المصري الثالث (المحاصر) على الضفة الشرقية من القناة وكذلك مدينة السويس.

سألني كيسنجر بفضول:

ـ «لماذا تعتبرون أن الوقت الراهن هو الوقت المناسب لمعالجة موضوع التسوية بشكل عام؟» فقمت بتعداد هذه العوامل:

١ ـ لقد فهمت إسرائيل، بأن عبارة «الجيش الإسرائيلي الذي لايقهر» ماهي إلا خرافة. بل يمكن أن يهزم.

٢ ـ العرب، صاروا يدركون، بأنهم سيذهبون إلى طاولة المفاوضات السياسية ليفاوضوا من مصدر قوة.

٣ ـ لقد تكون لدى العرب، شعوراً (لم يكن موجوداً سابقاً)، بأنهم يستطيعون أن يستعملوا سلاح حظر تصدير النفط إلى أمريكا وحلفائها وهو سلاح شديد الفعالية.

٤ ـ إن الرأي العام العالمي ـ حالياً ـ يقف إلى جانب العرب، ولن يلومهم أحد إذا قاموا «بالاعتداء» على إسرائيل.

٥ ـ ما اتصفت به العلاقات السوفياتية ـ الأمريكية خلال الوضع الراهن تسمح بغض النظر عن تباين وجهات نظر الطرفين والمعروفة لدى الجميع ـ بإمكانية مناقشة أي موضوع كان والتعاون على حله.

أنهيت حديثي بالقول:

ـ إن هذه العوامل التي ذكرتها تتصف بأنها وقتية وأنا على ثقة من أن واحدة أو أكثر من هذه العوامل ستتلاشى في المستقبل ولهذا فمن الضروري جداً ألّا نضيع الوقت.

استمع كيسنجر إلي بانتباه وأجاب، بأنه يوافقني في كثير من النقاط، باستثناء موضوع حظر الصادرات النفطية إلى أمريكا. أما بخصوص احتمال نشوب حرب أخرى جديدة بين العرب وأسرائيل، فلن يحدث هذا ثانية، إذا لم يقم الاتحاد السوفياتي مرة أخرى بالبحث عن منفعة شخصية له في هذه المنطقة أو قيامه بأعمال الإغراء والتحريض «Monkey busines».

بعد هذا التعرض، لم يبق أمامي إلا أن أجيبه بجفاء: بأن

البحث عن المنفعة أو أعمال الإغراء والتحريض ليست من اختصاصنا.

في نهاية العشاء قال كيسنجر مودعاً:

ـ «بأنه كان قد سمع سابقاً، أن السفير السوفياتي في القاهرة هو (Tough boy) شاب حازم وعنيد. لكن مع هذا فإنه يرجو أن يتعاون مع سفير الولايات المتحدة الأمريكية والذي تم تعيينه حديثاً في مصر، هيرمن إيلتس. فقد تم نقله من منصبه كسفير للولايات المتحدة الأمريكية في السعودية إلى مصر، بعد أن تم تعريبه...».

أجبته مازحاً:

ـ حسناً. بإمكاننا أن نتعاون مع «لورانس العرب الأمريكي» في حالة واحدة فقط.. إذا لم يقم بأعمال ذات منفعة أو أعمال إغراء وتحريض Monkey business من الجانب الأمريكي.

في اليوم الثاني، قامت الصحافة المصرية بنشر بعض مواد المباحثات التي جرت بين السادات وكيسنجر، باستثناء ما يتعلق بانسحاب القوات الإسرائيلية إلى مواقع يوم ٢٢ أكتوبر في إطار (القبول العام)، بفصل القوات المصرية والإسرائيلية. طبعاً لم يكن هذا جديداً بالنسبة إلينا. بدلاً من تنفيذ القرار القاضي بانسحاب القوات ودون شروط، فإن مباحثات السادات ـ كيسنجر قد دخلت بإطار رسمي بالاتفاقية الجديدة «عن فصل القوات»، وبالتالي فإن موضوع التسوية قد أُخرج وبشكل متعمد عن النهج المتفق عليه، وقامت القيادة المصرية بتوجيهه إلى طريق ملتو لايخدم عملية التسوية. وبالطبع لم يقم المصريون بإطلاعنا على بنود

الاتفاقية التي تم توقيعها بين السادات وكيسنجر. وبعد مضي أربعة ايام، دعاني فهمي إليه وقدم لي ورقة كانت تتضمن ماكان قد نشرته وسائل الإعلام والصحافة، وبعد أن قرأت هذه الورقة قلت له بفتور وعدم اكتراث، إنني أعرف هذا منذ زمن بعيد. أثار جوابي غضب فهمي.

بالنسبة لبدء الترتيبات ـ لعقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط، فقد بدأت مباحثات معقدة بين موسكو وواشنطن ونيويورك والقاهرة ودمشق وتل أبيب. وقد تطلب منا الوضع الجديد، الاتصال الدائم مع فهمي والسفير الأمريكي الجديد إيلتيس. في كانون الأول تلفن إليتس إلي قائلاً:

ـ «سيأتي كيسنجر إلى القاهرة ثانية ويرغب في مقابلتك».

أجبته بالموافقة، ثم تابع حديثه متردداً: ـ «وطلب مني أن أخبرك بأنه يريد مقابلة السفير السوفياتي في مطار القاهرة، أثناء وصوله أو اثناء مغادرته».

أصبح الملعوب واضحاً: ـ أن المستشار الأمريكي يريد متقصداً أن يبين للآخرين أن السفير السوفياتي يقوم باستقباله أو بتوديعه!» أجبته:

ـ بأن «إمكانية مقابلة المبعوث الأمريكي، بهذه الطريقة لاتناسبنا، لامن حيث الشكل ولا من حيث المضمون. هل يعقل أن تجري مباحثات جدية في مكان كالمطار!؟ إضافة إلى ذلك فإن كيسنجر سيأتي إلى مصر، لزيارة الحكومة المصرية، فما هي علاقة السفير السوفياتي باستقباله أو توديعه؟

أجاب إيليتس بتردد، وتكدر واضحين، بأنه يفهم أن هذا الطلب قد يكون في غير محله أو غير لائق، لكنه سيحاول الاتصال مرة أخرى بكيسنجر، كي يفكر بطريقة أخرى لمقابلتك. بعد مضي عدة ساعات، اتصل ثانية قائلاً:

ـ «ان كيسنجر يقترح بأن يكون مكان اللقاء في جناحه الذي خصصته له الحكومة المصرية في فندق الهلتون، وبعد انتهاء جلسته مع السادات. وقد يكون ذلك حوالي منتصف الليل». أجبته بالموافقة:

ـ إن الزمن بالنسبة للدبلوماسيين يجب أن لايعتبر قضية.

لغاية هذا الوقت كانت الأنباء المتناقلة في مختلف الأماكن تتحدث عن «نجاح» كيسنجر في أعمال الوساطة. وذهب البعض بمقارنته بـ «مترنيخ». ويبدو أن هذا التشبيه قد أعجبه. وأن لقائه بالسفير السوفياتي، كان عبارة عن حجة فقط يريد أن يضيفها إلى أهميته الشخصية، ولكي تتحدث الصحافة ـ بعد أن يكون قد تكوّن لديها هذا الانطباع ـ عن وجود «نشاطات مشتركة».

.. لم يطلعني كيسنجر على مباحثاته مع المصريين. «إن مترنيخ العصر» كان بعيداً عن التأدب الدبلوماسي لقيامه بتنظيف أسنانه أثناء حديثه عن ضرورة التفكير المشترك وضرورة التعاون السوفياتي الأمريكي لحل قضية الشرق الأوسط، الاتفاقية والمباحثات.. الخ.

في الأيام التالية تطلّب منا الكثير من النشاط والعمل بخصوص التحضير لعقد مؤتمر سلام للشرق الأوسط في جنيف،

بمشاركة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية. وقد تم تعييني وسيطاً في المباحثات. إن الدعوة لعقد مؤتمر سلام للشرق الأوسط، لم يكن موضوعاً سهلاً، فيجب الاعداد لكل قضية اعتباراً من مواد الاتفاقية، المشاركين، الترتيبات، الزمن، ـ مما كان يكسبها رنيناً سياسياً محدداً وهاماً.

كان اعداد الترتيبات، لعقد المؤتمر يتم من خلال المباحثات بين موسكو وواشنطن وبمشاركة السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة، ثم يتم اعلام القاهرة عن النتائج التي توصلنا إليها من خلال المباحثات، لأخذ موافقة المصريين عليها. وهنا في القاهرة كان كل من سفيرا الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية، يقومان معاً بعرض وجهة النظر المشتركة، على وزير الخارجية المصري فهمي والدفاع عنها. طبعاً لكونها نتاجاً أو حلاً وسطاً متفق عليه بين الجانبين السوفياتي والأمريكي.

أحياناً... كان الطرف الأمريكي، يلجأ إلى تقديم بعض المعلومات إلى المصريين والتي لم تعرض بعد على الجانب السوفياتي (وكانت تمثل وجهة النظر الأمريكية فقط) أو عرضت علينا لكن لم تنل موافقتنا. وكان المصريون يوافقون الجانب الأمريكي عليها. وعندما نرفضها، يصبح وكأن السوفيات قد رفضوا طلبات المصريين.. وقد تطلب منا فضح هذه الألاعيب التي يقوم بها الجانب الأمريكي. كما لم يكن يطيب لنا النشاط الذي كان يقوم به وزير الخارجية الجديد فهمي بما يتعلق بالإعداد لمؤتمر السلام، من خلال تعاونه الأحادي الجانب والذي كان مقتصراً على الأمريكيين دوننا.

وقد تقصد أن يعلق صورة فوتوغرافية كبيرة في بيته تمثل استقبال نيكسون له في البيت الأبيض، وكان يحاول وبجميع الوسائل أن يحابي الأمريكيين ـ بينما ولفترة ليست بعيدة (خلال أيام الحرب) ـ لم تكن تصرفاته على هذه الشاكلة.

تغير أسلوب المصريين بشكل يدعو إلى الدهشة والعجب عندما بدأ الحديث عن مشاركة الفلسطينيين في مؤتمر السلام، الفلسطينيون الذين يعتبرون المحور الرئيسي الذي يدور حوله الصراع في الشرق الأوسط كما هو معروف. وغالباً ما كنت أستمع أثناء تنقلاتي في منطقة الشرق الأوسط كما هو معروف، إلى العبارة التالية: ـ «العرب.. لايمكن أن يحاربوا وبنجاح دون مشاركة مصر، كما لايمكن إقامة السلام دون الفلسطينيين».

كان الاتحاد السوفياتي قد تبنى قراراً لا رجوع عنه يتضمن «مشاركة الفلسطينيين في مؤتمر السلام». بينما كانت إسرائيل تدعي بأنه «لاوجود لما يدعى بالشعب الفلسطيني».. وبالطبع فقد كانت ضد القرار السوفياتي، معتمدة برفضها على دعم الولايات المتحدة الأمريكية لها. وأريد أن أشير هنا إلى أن الحكومات العربية ـ إلى غاية ذلك الوقت ـ لم تكن قد اتخذت قرارها، باعتبار (وقد وصلوا إلى هذا القرار بشكل طبيعي فيما بعد)، منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. ولهذا السبب فقد تم ذكر العبارة التالية في وثائق اتفاقية المباحثات المتعلقة بمؤتمر السلام الدولي:

ـ «بأنه قد تم قبول ممثلي الشعب الفلسطيني، دون المشاركة

حالياً، إلى أن يحين الوقت المناسب لمشاركتهم في أعمال المؤتمر». وقد وافق المصريون على هذا الطرح. إلا أنهم وتحت الضغط الأمريكي صاروا يطالبون بتغيير صياغة النص والتي وصفوها بأنها «صياغة أمريكية» وأن تعدّل على الشكل التالي:

- **«... أما بالنسبة للمشاركة الفلسطينية في المؤتمر، فسيتم مناقشتها في المرحلة الأولى من المؤتمر».**

في إحدى الأماسي، دعاني فهمي إليه. وعندما وصلت، كان السفير الأمريكي إيليتس جالساً عنده. طبعاً لم يكن تصرفه هذا، من باب اللطافة أو اللباقة. فمن دواعي الأدب كان يفترض أن يعلمني بذلك. لكن الشيء الرئيس كان: - هل أوافق على حضور هذه الجلسة الثلاثية الأطراف أم لا؟. قدم لي فهمي ورقة مطبوعة.

لاحظت أن ثمة ما يشير إلى طباعة هذه الورقة في سفارة الولايات المتحدة الأمريكية. ثم أضاف قائلاً:

- **«هذه هي الصيغة المصرية الجديدة للنص** (المتفق عليه مع الولايات المتحدة الأمريكية). وقرأت فيها: - **«بالنسبة (لإمكانية)** المشاركة الفلسطينية في المؤتمر سيتم مناقشتها في المرحلة الأولى من المؤتمر».. صحيح هذا هو الشيء الجديد..! فسابقاً لم يكن هناك مثار شك بالمشاركة الفلسطينية، أما لاحقاً فقد ظهرت صيغة أخرى، وبالتالي لاتشكك (بإمكانية) قبول المشاركة الفلسطينية، بل (أن الصيغة الجديدة)، لم تتطرق إلى ذكر اسم الشعب الفلسطيني مطلقاً بل جاءت الصيغة التالية بدلاً عنها وعلى الشكل التالي:

ـ «.. بالنسبة لسؤال مشاركة **ممثلي دول المنطقة الأخرى،** فسيتم مناقشة هذا الموضوع في المرحلة الأولى من أعمال المؤتمر». أجبته أن الصيغة الجديدة قد غيرت جوهر الموضوع، والذي سيعقد المؤتمر من أجله، ولهذا لا أستطيع الموافقة عليها، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية، وقبل كل شيء أريد أن أعرف ماهو الرد الفلسطيني على الصيغة الجديدة هذه، وهذا شيء هام بالنسبة لي.

نهض فهمي من مقعده وراح يحاول اقناعي وبحرارة بأنه قد قام «شخصياً بصياغتها مع الجانب الفلسطيني» وبقية الأطراف العربية المشاركة في المؤتمر. وكان هذا الموقف هو آخر المواقف التي اعترضت توجيه الدعوة الرسمية للدول المشاركة في المؤتمر (فيما بعد. قال لي الفلسطينيون: ـ بأنه لم تعرض عليهم الصيغة المصرية الجديدة أبداً).

.. تم تحديد يوم ٢١ كانون الأول من عام ١٩٧٣ موعداً لعقد المؤتمر في جنيف بقاعة الأمة. قبل مغادرتي القاهرة، جاءني نبأ مفاده أن سوريا قد رفضت المشاركة في المؤتمر. وقد أعلنت ذلك عقب زيارة كيسنجر إلى دمشق. كان موقف فهمي أمام النبأ السوري غير المتوقع هو عدم الاكتراث. وأخذت أفكر، كيف أمكن لهذا أن يحدث؟ في ١٩ كانون الأول قام الوفد المصري، برئاسة فهمي الذي كان قد دعاني ومجموعة من الصحفيين والمراسلين الأجانب ـ للسفر معه بالطائرة المتجهة إلى جنيف. وعندما هبطت طائرة الخطوط الجوية المصرية، استرعى انتباهي الاجراءات الأمنية المشددة غير العادية، للحفاظ على الأمن: ـ الحرس من الجيش، مئات من أفراد الشرطة، المدرعات، مدافع

رشاشة، حواجز، بطاقات دخول خاصة. وفي نفس اليوم وصل إلى جنيف بالطائرة كل من وزير خارجية الاتحاد السوفياتي ـ ١ . ا. غروميكو، والأمين العام لهيئة الأمم المتحدة ـ ك. فالدهايم، مستشار الولايات المتحدة الأمريكية ـ كيسنجر، وزير خارجية إسرائيل ـ ابا ايبان، رئيس وزراء الأردن ـ ز. الرفاعي. في مساء اليوم التالي كانت مطالعة كيسنجر، فتقدم بخطته:

ـ «سيكون يوم ٣١ كانون الأول، يوماً لانتخابات البرلمان الاسرائيلي (وسيصعب) على الإسرائيليين إلى حين تشكيل الحكومة الجديدة، أن يتابعوا أعمال المؤتمر». ولهذا فإن المؤتمر قد تم افتتاحه في ٢١ كانون الأول وفي اليوم الثاني ٢٢ كانون الأول (حسبما طرح كيسنجر) إمكانية إنهاء أعمال وعودة الوفود كل إلى داره، على أن يعود الوسيطين (السفير السوفياتي فينوغرادوف والأمريكي بانكر) إلى جنيف في ٧ كانون الثاني، للتحضير لأعمال المؤتمر الذي سيعقد مجدداً في ١٥ كانون الثاني، هذه كانت ملخص خطة كيسنجر.

إلا أن ا.ا.غروميكو، عارض هذه الخطة قائلاً:

ـ «لم نأت إلى هنا، كي نجامل بعضنا البعض أو لإستعراض مظاهر التشريفات هذه. بل أتينا لنعمل. يجب أن يستمر انعقاد المؤتمر. وإذا لم يكن هناك إمكانية للعمل من خلال انعقاد جلسة بكامل الأعضاء، فيمكن العمل من خلال مجموعات عمل». وافق كيسنجر بامتعاض.

جاء يوم ٢١ كانون الأول ـ اليوم التاريخي: وقد اجتمع لأول

مرة ممثلو الدول المشاركة في المؤتمر الدولي. وكانت لدينا رغبة قوية بأن ننجح فيه بإحلال السلام في منطقة الشرق الأوسط، لأن الوضع ـ في ذلك الوقت ـ في الشرق الأوسط كان مؤاتياً للعرب: ـ تقابل العرب والإسرائيليون في النهاية ـ حول طاولة مفاوضات واحدة، بالرغم من أن أهداف كل طرف منهم كانت متباعدة، لكن في النهاية، فإن كلاً الطرفين قد جاءا إلى المفاوضات بقصد أن يصلا من خلال المؤتمر إلى سلام عادل! لكن شيئاً ما كان يدعو إلى التيقظ والحذر.

قبل افتتاح المؤتمر، اتفقنا مع فالدهايم، حول أماكن جلوس الأطراف المشاركة في المؤتمر. وتم الاتفاق أن يجلسوا على شكل دائرة، آخذين بعين الاعتبار هذين المبدئين الأول: حسب الأحرف الأبجدية ـ في الوسط السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة على يمينه، الاتحاد السوفياتي وعلى يساره الولايات المتحدة الأمريكية. وحسب اتجاه حركة عقارب الساعة تأتي (بعد الولايات المتحدة الأمريكية) سوريا، إسرائيل، الأردن، مصر.

والمبدأ الثاني: ـ كان يغلب عليه الطابع السياسي: وحسب اتجاه عقارب الساعة، بعد الولايات المتحدة الأمريكية: إسرائيل،الأردن، سوريا، مصر.

كانت قاعة الأمة حيث سيعقد المؤتمر يحرسها رجال الحرس المدججون بالأسلحة، بل أن نقاطاً للحراسة قد وضعت فوق أسطح البناء بأكمله وحوله، وكان الصحفيون يتحركون بضجيج في قاعة البناء، فمن هذه القاعة سيتم نقل تلفزيوني إلى جميع أنحاء العالم.

على حين غرة دخل فالدهايم، إلى جناح الوفد السوفياتي ولديه مشكلة:

ـ «أن الوفد الأردني يرفض الجلوس إلى جانب الوفد الإسرائيلي، هذا يعني بأن المقاعد المجاورة للوفد الإسرائيلي ستبقى فارغة. ولن يقبل الوفد الإسرائيلي أن تكون المقاعد الواقعة على يمينه فارغة.

.. «هناك مقترح ـ قال فالدهايم ـ أن يجلس من جهة الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة وحسب حركة عقارب الساعة: إسرائيل، الاتحاد السوفياتي، سوريا، الأردن، الولايات المتحدة الأمريكية مصر» أجابه غروميكو:

ـ «لسنا أطفالاً صغاراً، موافقون ـ ثم ابتسم له: ـ بشرط أن يبدل الوسطاء مقاعدهم». عندئذٍ تم اعتماد التوزيع التالي: ـ الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة، إسرائيل، الولايات المتحدة الأمريكية، سوريا، الأردن، الاتحاد السوفياتي، مصر. وافق فالدهايم بسرور.

بعد مرور لحظات، دخل كيسنجر إلى جناحنا مسرعاً، مصفراً ومرتبكاً ويتبعه فالدهايم، كان كيسنجر مايزال يرتجف، وبصوت متقطع اتجه بحديثه إلى ا.ا.غروميكو: ـ الولايات المتحدة الأمريكية تصر على طلبها بضرورة تغيير مقاعد المشاركين في المؤتمر وإلا فإن الجلسة ستبدو وكأنها منقسمة إلى جبهتين، إحداها إسرائيلية خالصة (إسرائيل وأمريكا)، كان يتحدث وعينيه تزداد بريقاً ووجهه يزداد توهجاً وكأن الموضوع هام جداً.. ابتسم غروميكو وعلى عادته في المزاح رفع صوته متوجهاً بحديثه إلى الأمين العام المتحدة ولكي يسمع الجميع:

ـ «أرجو من السيد الأمين العام للأمم المتحدة وبشكل رسمي أن يثبت هذه الواقعة بأن الولايات المتحدة الأمريكية ترفض الجلوس إلى جانب الوفد الإسرائيلي». انفجار من الضحك.. ثم تابع:

ـ «بالنسبة إلينا هذا لايشكل أية مشكلة، لقد جئنا إلى هنا كي نعمل لا لكي نلعب» لكي يعقبه تصفيق حار من الأمين العام للأمم المتحدة، ثم ليمسح عرق جبينه من شدة الانفعال.

اتجهنا إلى قاعة الاجتماعات. على فكرة، صادف يوم ٢١ كانون الأول، بلوغ فالدهايم ٥٥ عاماً «يا لهذه المصادفة ـ قال فالدهايم ـ يا ترى أسيكون هذا اليوم التاريخي الذي سيضع بداية لبناء السلام في الشرق الأوسط؟» عند دخولنا القاعة توجهت إلينا الأنوار القوية المنبعثة من أجهزة التصوير السينمائي والفيديو والمراسلين الصحفيين. جلسنا.

افتتح فالدهايم، المؤتمر بكلمة ترحيب قصيرة، ألقى بعده ا.ا.غروميكو خطابه، تضمن خطاب وزير الخارجية السوفياتي تقييماً موضوعياً للوضع الراهن في الشرق الأوسط، دعى فيه إلى حل عادل للمشكلة المتراكمة، وأعطى فيه انطباعاً مؤكداً عن جاهزية الاتحاد السوفياتي للتعاون مع جميع الأطراف لإنقاذ شعوب الشرق الأوسط من حالة الحرب والاقتتال وإقامة سلام عادل ودائم في المنطقة.

تلاه في الخطاب كيسنجر، قليلون هم الذين أعجبوا بكلمته، والتي اقتصرت على ذكر بعض الجمل العامة متضمنة أقوالاً وحكماً

يهودية لفظها بلغتها الأصلية.. كان الخطاب مضحكاً لايليق بـ «مترنيخ العصر».

تضمنت الكلمات التي ألقاها كل من فهمي وأبا ايبان أهدافاً متشابهة تقريباً. بعد برهة من الزمن حدثت مشادة كلامية فقد وجه فهمي (يبدو أنه كان يريد أن يلعب على المؤتمرين) كلمات فظة إلى إيبان.

في اليوم الثاني، تم عقد اجتماعات مغلقة للمشاركين في المؤتمر، وتم اقرار تشكيل مجموعة عمل عسكرية، كلفت بفصل القوات المتحاربة على الجبهة المصرية ـ الإسرائيلية وفوراً.

أعلن فالدهايم فترة راحة لأعمال المؤتمر. اقترب كيسنجر من وفدنا وبرفقته السفير بانكر «الوسيط الأمريكي لأعمال المؤتمر» رجل طويل القامة نحيفها ممطوطها.. عمره تجاوز ٨٠ عاماً، قائلاً:

ـ «أتعرفون لماذا كَلَّفْنا السفير بانكر بالعمل كوسيط للمؤتمر؟» توجه كيسنجر بالسؤال إلى غروميكو، ثم ليجيب بنفسه: ـ «لأن بانكر لايحب أن ينهي عمله بسرعة!.. إنه لاينهِ أي عمل يبدأه قبل ثمان سنوات!» ـ ثم ضحك معجباً بنفسه. لقد كلف بانكر (سابقاً) برئاسة الوفد الأمريكي شكلياً في مباحثات مشكلة قناة باناما، وللدفاع عن مصالح أمريكا في استغلال القناة المذكورة. ما استرعى استغرابي اللهجة المتقصدة، التي كان يتحدث بها كيسنجر. وهكذا عاد كيسنجر، ليتساءل مرة أخرى:

ـ «حسناً أسيبقى فينوغرادوف في جنيف؟» أجابه ا.ا.غروميكو:

- «نعم سيبقى لأننا قد اتفقنا على أن تستمر أعمال المؤتمر».
تصنع كيسنجر بوجهه الباكي قائلاً: - «إن السفورت (بانكر)، لديه أولاد وأحفاد، ويريد أن يسافر ليقضي عيد الميلاد معهم، ولهذا فإنه سيسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. «ليومين فقط» إلى يوم ٢٦ وأقصى حد ٢٧ كانون الأول ليعود بعد ذلك إلى جنيف لاستكمال المباحثات، كانت لهجة حديثه تدل على أنه جدي في وعده، ولأنني لم التق بعد بأمريكي، نكث بوعده، وبشكل خاص إذا كان الوعد متعلقاً بالزمن - فقد صدقته.

في صباح اليوم التالي دعانا بانكر، للافطار معه. خلال الافطار بدأ مبعوث المستشارية الأمريكية **ستونر** حديثه حذراً، بطرح فكرة «شاذة»، تتعلق بسير أعمال المؤتمر. قال مؤكداً بأن المصريين، لايريدون أن يشارك الوسطاء أو ممثليهم في عمل المجموعات العسكرية. لهذا يجب أن يكون عملنا كوسطاء «من خلف الكواليس». ثم طور بانكر فكرته:

- «أليس من المفيد إعطاء المباحثات فرصة طويلة من الراحة (لتبريد تأجج لهيب الطرفين)؟ وبكلام آخر - كان يقصد التالي: - «ألستم توافقوننا على التطويل أو المطمطة، في المباحثات لأعوام مديدة وبعيدة عن مشاركة الوسيطين الدوليين وبشكل منفرد، كل دولة عربية على حدة.. طبعاً متقصداً إبعاد الوسيط السوفياتي، لأن أمريكا ستستمر في ممارسة نشاطها وفعاليتها من خلف الكواليس لمصلحة الجانب الإسرائيلي ومن خلال مباحثات ثنائية منفردة (وقد أكد المستقبل بأن الحل الذي ترتئيه إسرائيل هو أن تنفرد بكل دولة عربية على حدة) وهذا ماقدمته مصر من خلال كامب ديفيد.. إذاً

ملخص الفكرة التي تقدم بها سترنر وبانكر كانت مسخ وتشويه المؤتمر الدولي. في المساء تقابل غروميكو مع فهمي، واستناداً إلى المعلومات التي عرضها بانكر وسترنر في «جلسة الافطار»، سأله غروميكو مباشرة: عن وجهة نظره بما يتعلق بمستقبل عمل المؤتمر وبشكل خاص عن دور الوسطاء. ذكرني الجواب الذي أجابه فهمي، بلعبة الأطفال: - «نعم» و«كلا» دون أن يذكر أو يحدد أبيض أم أسود، بقي يتحدث لمدة نصف ساعة بكلام ملتو، دون أن يقول كلاماً محدداً، وشتم المترجمين الذين لم يترجموا كلامه بدقة... حديثه هذا زاد من تثبيت قناعتنا بأن هناك اتفاقاً مصرياً أمريكياً قد تم. وتبلورت هذه القناعة أكثر عقب سفر غروميكو من جنيف بيوم واحد. جاءني سترنر وأطلعني على مذكرته، ويزعم فيها بأن العبارة المكتوبة هي عبارة مصرية «بأنهم ليسوا ضد مشاركة الاتحاد السوفياتي» مما اضطرني أن أوبخه توبيخاً عنيفاً على استفزازه هذا. سألت نائب وزير الخارجية المصري رياض، عن صحة ما قاله سترنر. فانفجر على الفور قائلاً:

- «الأمريكيون غدارون وخداعون ومَا سترنر إلا عبارة عن عنصر استفزاز!» في مساء ذلك اليوم دعاني فهمي إلى العشاء معه متصنعاً المرح وأخذ تدريجياً يفصح عن فكرته: - «ليس هناك ضرورة لأن يصر الاتحاد السوفياتي على مشاركته بالمباحثات، ولن نطرح أي موضوع دون موافقته، وأن فهمي ملتزم بموافقة السوفيات.. الخ من الكلام».

إن ماتحدث به فهمي كان حديثاً مناقضاً لما تحدث به مع ا.ا. غروميكو! أجبته:

ـ «بأنه لي قيادتي، ولدينا وجهة نظرنا وأفكارنا الخاصة، وإن مايؤسفني أشد الأسف هو أن المصريين قد شوشو العمل وأربكوه.. وإن موقفهم سابقاً كان أكثر وضوحاً من الوقت الحالي، وكان ذلك أكثر فائدة لمصالح مصر من جهة والفلسطينيين وجميع العرب من جهة أخرى. أما الآن ومن خلال هذا التشوش والخلط فلن تكون النتائج جيدة لصالح مصر والعرب.

وبالفعل هكذا تم. فإن عمل «لجنة العمل العسكرية» لم يتحرك من مكانه خطوة واحدة. ثم قاموا بنقل الوفود المصرية والأمريكية والإسرائيلية ـ المشاركة ـ بشكل كامل ونهائي من جنيف، ولم يبق سوى وفدنا في جنيف.

وقبل سفر الوفد الإسرائيلي ومغادرته جنيف، جاؤوا لوداعي برئاسة إيفرون. حدثوني بأن الاهتمام الإسرائيلي داخلياً كان كبيراً بانعقاد المؤتمر الدولي وأن جميع أبناء الشعب الإسرائيلي كانوا مشدودين إلى أجهزة التلفزيون، وقد انفتحت عيون المواطنين الإسرائيليين دهشة عندما سمعوا وجهة نظر وزير الخارجية السوفياتي اعجاباً لتبنيه فكرة إقامة السلام العادل وموقف الاتحاد السوفياتي ضد الحرب.

استمرت الجلسة غير المنتظرة مع الوفد الإسرائيلي وحاولنا من خلال هذه الجلسة أن نثبت في أذهانهم السعي نحو إقامة سلام حقيقي ودائم في الشرق الأوسط مادامت الظروف مؤاتية للطرفين. وأجابوا بدورهم:

ـ «بأن إقامة سلام في الشرق الأوسط دون مساعدة ومشاركة

الاتحاد السوفياتي غير معقول ولايمكن تصوره» وعندما نهضنا لتوديعهم، التَفَتَ إليَّ إيفرون متسائلاً:

ـ «هل فهم المصريون بأن الاتحاد السوفياتي قد أنقذهم فعلاً من الهزيمة الساحقة في الأيام الأخيرة من حرب أكتوبر؟» أصبت برعشة: «ـ هذا يعني أن الإسرائيليين قد قيموا وبشكل صحيح الدور الذي وقفته بلادي مع شعب مصر وفهموا بشكل صحيح قرارنا!».

.. أخيراً وصل بانكر إلى جنيف، طبعاً ليس كما وعد كيسنجر.. أي ٢٦ كانون أول، بل بعد شهر من بدء سفرته (بتاريخ ٢١ كانون الثاني). وبعد بضعة أيام سافر مرة أخرى عائداً إلى أمريكا، بعد أن أعلمني بأنه لن يأتي إلى جنيف قبل منتصف شباط (!).

والآن هل تستطيع أن تثق بوعود الدبلوماسية الأمريكية بعد هذه المماطلة الواضحة؟ بعد ذلك قام المصريون والإسرائيليون بتوقيع اتفاق على «فصل القوات» ليس من خلال المؤتمر بل من خارج إطار عمل المؤتمر الدولي: ـ في البداية كان اتفاقاً منفرداً (مصرياً ـ أمريكياً) ثم إسرائيلياً وبالتتابع.

نسيت مصر القضية العربية المشتركة، ونسيت سوريا التي كانت حليفتها إلى وقت قريب، أما عن مصالح الشعب الفلسطيني فكانت قد نفضت يدها منها بشكل نهائي. بل أذكر أن الإعلام الفلسطيني كان قد نشر:

ـ «ان المسؤولين المصريين يحاولون إلغاء الدور السوفياتي ويساعدون الولايات المتحدة الأمريكية بالتسلل إلى منطقة الشرق

الأوسط». وبالفعل كان التصور الفلسطيني في مكانه.

.. مر الوقت وغادرت جميع الوفود التي قدمت للمشاركة في مؤتمر جنيف دون ضجة مميزة بعد جلسة عمل روتينية في قاعة الأمة والتي شاركت فيها لجان، هيئات، مجموعات عمل، ذات أسماء طويلة وأسماء غير مفهومة. وشعرت أن مؤتمر جنيف لم يكن إلا عبارة عن عملية تضليل متقصدة. تطرقت الاجتماعات إلى مواضيع متنوعة، إلا قضية الشرق الأوسط... وقد أعطى ذلك انطباعاً عن سخافة هذا الاجتماع.

طبعاً خلال هذه الفترة كانت الرحلات المكوكية، لهنري كيسنجر «مكوك الدبلوماسية الأمريكية» مستمرة من تل أبيب إلى القاهرة ثم واشنطن ومن جديد إلى تل أبيب، القاهرة وأحياناً دمشق وعمان. كان يحاول وبسرعة أن يحقق سلاماً منفرداً بين البلدين. وبأي ثمن كان، شريطة عدم اعادة الأراضي الفلسطينية المحتلة.

كانت هذه الرحلات مستمرة... بينما كنا ـ نحن ـ مانزال في جنيف. أما بانكر فكان يأتي إلى جنيف مرة واحدة فقط كل شهر، ليقطع المباحثات مجدداً بعذر ما، ولم يكن يعطي فكرة واضحة حتى في زيارته هذه، بل كان يكتفي بالتعليق قائلاً:

ـ «إن تصوراتكم تحمل طابعاً مشجعاً، وسأقوم بنقلها إلى الحكومة الأمريكية» وينتهي عند هذا لقاؤنا. وعندما طلبنا من موسكو الموافقة على مغادرة الوفد السوفياتي جنيف والعودة لمتابعة أعمالنا، رفضت موسكو ذلك. وأحياناً لم تكن حتى لترد على

طلبنا. وعندما كان يأتي أحدهم إلى طرفنا، كان يوصينا: ـ «أن لايؤثر ذلك على أعصابنا... ولاحاجة للتوتر».

بقينا نتابع دراسة الوضع الخاص بالتسوية لمنطقة الشرق الأوسط، كما كانوا يقولون من «النظرة الجنيفية». تباحثنا مع المفوضين الدائمين في جنيف ـ للدول العربية، ودول أوروبا الغربية. لم يكن لدينا أي اتصال مع الأمريكيين ـ لأن عناصر الوفد الأمريكي كانوا قد غادروا جنيف، والقسم الآخر كان مرافقاً لكيسنجر خلال جولاته المكوكية في منطقة الشرق الأوسط ـ وعندما طلبنا من الولايات المتحدة الأمريكية، إرسال وفد دائم ومستقر إلى جنيف، كان جوابهم:

ـ «بأنه لايتوفر حالياً لدى الولايات المتحدة الأمريكية، كادراً متخصصاً بقضايا الشرق الأوسط». وهكذا فُرض علينا أن نتعامل مع «الوفد الأمريكي» المتخصص في قضايا الشرق الأوسط والذي لم يكن يتواجد من عناصره (عن قصد وتعمد) أحد في جنيف.

جاءتني معلومة، بأنه قد تم تعيين شخص آخر لرئاسة الوفد السوفياتي المكلف بمباحثات مؤتمر السلام في جنيف لقضية الشرق الأوسط وتسميته وسيطاً بين الأطراف المشاركة. كما تم في الوقت نفسه اعفائي من مهمة سفير الاتحاد السوفياتي في القاهرة (لقد تمت أخيراً).

حصلت على موافقة بالعودة إلى القاهرة، وفقاً للعرف الدبلوماسي، لتوديع الكادر السوفياتي والدبلوماسيين الآخرين وفي الوقت نفسه لإنهاء مهمتي في مصر.

.. تحدثت الشخصيات المقربة من السادات معي، بأحاديث حارة. لكن بتحيز سريع وواضح، مسايرين مساعي الرئيس:

- «خلاص.. لقد انتهينا مما كان يسمى بقضية الشرق الأوسط، ومؤتمر السلام الدولي، لسنا بحاجة إليه.. ماذا يلزمنا أكثر مما حصلنا عليه، لقد وصلنا إلى ماكنا نريد بعون الله وأمريكا، والحمد لله».

لم يكن لمؤتمر السلام أي صدىً لديهم إلا أن قسماً كبيراً من رجال الفكر والشخصيات السياسية المصرية لم يخفوا امتعاضهم، ومعارضتهم للنشاط السياسي الذي كان يتبعه السادات، ووزير خارجيته فهمي والمقربين إليه أو هؤلاء الذين يتحدثون بلسان الرئيس.

هؤلاء الذين أسلموا قدر مصر إلى رحمة الأمريكيين والإسرائيليين: - لقد تخيلوا بأنه سيكون لمصر دوراً ريادياً في العالم العربي، ولن يهمهم إذا كان ثمن ذلك إبعاد الاتحاد السوفياتي أو حتى قطع العلاقات معه.

الأصدقاء من أبناء القاهرة والمطلعين بشكل جيد على النشاط السياسي للسادات، قالوا لي وبصراحة، أن الأمريكيين قد أكدوا للسادات فور قبوله لشروطهم... وتوقيع اتفاقية سلام منفردة مع اسرائيل (أي أنه عندما ستخرج مصر عن الإجماع العربي وعندما تتناسى القضية الفلسطينية) فإن مصر ستحتل بالنسبة للسياسة الأمريكية المكانة أو الموقع الذي تحتله إسرائيل حالياً (!)، ويبدو أن السادات قد اقتنع وآمن بهذا الوعد منطلقاً من تصوراته... (لما

لا؟.. فمصر هي من أكبر دول الشرق الأوسط وأكثرهم تأثيراً، بالطبع يجب أن يعتمد عليها الأمريكيون.. هذا يعني أنهم سيخصصون ملايين الدولارات وربما مليارات الدولارات من «المساعدات» لمصر. المعلومات المتوفرة لم تكن تسمح ـ حتى لأفكارنا بتصورها، بخصوص التغيرات التي حدثت وأحدثت بالوضع ـ وبشكل خاص، تحقق تلك المعلومات التي كانت تبعث على دهشتنا وحذرنا من الخطر الداهم.

إن التغير الحاد في اتجاه السياسة المصرية لم يكن تغيراً غير مرض فقط، بل حتى لقد وضعنا أمام الحقيقة، مما تطلب منا التفكير باتخاذ الاجراءات المضادة لهذا التوجه بالرغم من معرفتنا لتلك الحكمة القديمة: ـ «اقطع رأس الأفعى، التي تجلب لحكوماتها أفكاراً مدمرة».

أثناء فترة التوديع و«ضبضبة» الأوراق..جاءتني أوامر غير متوقعة بالعودة إلى جنيف لإجراء المباحثات مع بانكر، الذي وعد بمجيئه إلى جنيف خلال الأيام القليلة القادمة.

دعوت إلى اجتماع عاجل، وأدهشني أن كبار شخصيات السياسة المصرية قد لبوا الدعوة، وأحسست بأنهم محرجون، وكأنهم يقدمون اعتذاراً عن تصرفات الرئيس بخصوص علاقاته المتردية مع الاتحاد السوفياتي وسفيره. إلا أن اجتماعنا لم يكن لهذا الغرض، بقدر ما كان لمعرفة ماهية الإجراءات التي يجب أن نقوم بها.

بعد انتهاء الاجتماع السريع هذا، أسرعت إلى جنيف بعد

توقفي في موسكو. بالطبع لم يحضر بانكر، في اليوم الذي حدد لاجتماعنا بل بعد عشرين يوماً من اليوم المحدد للقاء. ولم يتم التوصل معه (من خلال هذا اللقاء) إلى أية نتائج. كما أنه لم يتقدم إلينا بأية فكرة ولا بأي مقترح ـ فقط أبدى تعاطفه واحترامه لجهودنا المبذولة... وشيء من التذمر بأنه قد أصبح رجلاً عجوزاً، طاعناً في السن وقد تجاوز الثمانين من العمر.. وصار غير مناسب للعب هذا الدور الذي لايحسد عليه.. مؤكداً بأنه كان من الناحية الإنسانية، متعاطفاً معنا، متفهماً بأن حل الصراع في الشرق الأوسط، قد وصل إلى نهايته (ربما كان يعرف ذلك منذ بدء أعمال المؤتمر). ثم دعى بانكر ـ أعضاء الوفد السوفياتي إلى طاولة عشاء في أحد أغلى المطاعم على ضفاف بحيرة جنيف.

كانت الكلمات المتبادلة على طاولة الطعام، كلمات لطيفة ذات طابع دبلوماسي، وقد فهم كلانا بأن لقائنا هذا سيكون اللقاء الأخير ـ بصفتنا طرفاً مشاركاً في المؤتمر وبصفتنا الشخصية أيضاً.

بعد ذلك وفي وقت متأخر، قرأت مذكرات كيسنجر والتي أخذت ضجة «الدبلوماسي المكوك» بأنه قد سخر من استمرارية تواجد الوفد السوفياتي «الخمول» في جنيف! غير أنني كنت شاهداً لما حدث، فأثناء المقابلات التي كان يجريها وزير خارجيتنا في جنيف مع كيسنجر كيف كان المذكور يقدم وعوده وهو يقسم ويستحلف بالله ـ عندما يتشكك وزير خارجيتنا من كلامه ـ بأن نعطيه فرصة أخرى ليعود إلى استئناف أعمال المؤتمر ـ يبدو أن هذه الفرصة كانت ضرورية لكيسنجر كي يقوم برحلاته المكوكية بين مصر، إسرائيل وأمريكا ليبحث معهم وبشكل منفرد أمور بعيدة عن

روح مؤتمر السلام والذي كنا ننتظر منه المشاركة الصريحة والصادقة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية.

أصبح من الواضح أن «حرب أكتوبر» عام ١٩٧٣ كانت عملاً مدبراً ومخططاً له. ولم تكن خطوة جادة لتحرير الأراضي العربية المحتلة وإقامة السلام العادل والمشرف في منطقة الشرق الأوسط. لقد كانت وسيلة ـ أرادوا بها ـ إعادة الولايات المتحدة الأمريكية إلى منطقة الشرق الأوسط، تحت قناع إقامة السلام. إن النوعية المتطورة من الأسلحة، والإعداد الجيد والمتفوق للقوات المسلحة المصرية، والروح الأخلاقية العالية ـ والتي لم يكن حتى السادات يتوقعها في جيش مصر ـ كانت تهدد إسرائيل بالاندحار والهزيمة.

في جميع الحالات (ربما كان هذا الشيء مخالفاً أو غير متوقعاً وخارجاً عن الخطة التي دبرها السادات)، إن المراقبة الأمريكية «البسيطة» للهزيمة التي حلت بإسرائيل في الأيام الأولى من القتال كانت ضرورية جداً للأمريكيين.. كي يثبتوا لإسرائيل بأن أمريكا هي التي أنقذتها من الهزيمة المحققة.. ولكي تبقي في أذهان الإسرائيليين بأن أمريكا هي «المنقذ والحامي للدولة العبرية» وبالمقابل فإن الأمريكيين كانوا يريدون أن تتعرض مصر أيضاً (وفي نفس الوقت) إلى خسارة حقيقية أو مايشبه الهزيمة، كي تلعب بالنسبة لهم أيضاً دور «المنقذ». وقد حقق لهم السادات هذا الهدف، عندما أوقف القوات المصرية عن تقدمها لإحتلال المضائق بعد عبورها التاريخي للقناة. ثم عندما لم يستمع للملحق العسكري السوفياتي بسد الثغرات الموجودة في أجنحة الجيش

المصري، الذي عبر القناة. ثم عدم استجابته بالتدخل السريع لوقف الخرق الإسرائيلي وانتقال القوات الإسرائيلية إلى الطرف الغربي من القناة، إلى أن وصلت الوحدات الإسرائيلية المقاتلة لمسافة (١٠٠ كيلومتر) عن القاهرة. وقد تأكدنا ـ فيما بعد ـ ان هذا ماكان ينتظره السادات في تلك اللحظات العصيبة، وقد حققه بجدارة.

لقد نصب السادات من نفسه جلاداً لأبناء الشعب المصري، عندما مارس أبناء الشعب المصري في القوات المسلحة، مشاعرهم الوطنية الصادقة، وربما لأنهم تجاوزوا الحدود في رأيه باندفاعهم المستميت والجبار في عبور القناة وما أبلوه من بلاء رائع في عملية العبور. لقد ضحى السادات بدمائهم وأرواحهم في هذه «اللعبة السياسية».

إن الدعوة لعقد مؤتمر دولي، لقضية الشرق الأوسط، كانت تعتبر نصراً حقيقياً للقوى المحبة للسلام وبالدرجة الأولى للدبلوماسية السوفياتية، مما أدى إلى ازدياد سمعة الاتحاد السوفياتي الحسنة والثقة به عالمياً.

كنتيجة «لحرب أكتوبر» ١٩٧٣ ، تراكمت الظروف الموضوعية والمناسبة لإقامة سلام عادل ودائم ومضمون، لجميع دول المنطقة. لو تم ذلك عندئذٍ، لكف هذا الموقع من العالم عن أن يكون مادة للحرب والاستغلال السياسي من قبل القوى الامبريالية. إلا أن سلاماً كهذا ماكان يناسب المخططات والمصالح الأمريكية في هذه المنطقة.

تمكنت الدبلوماسية الأمريكية وبمساعدة السادات من تخريب

الالتزامات التي أخذتها على عاتقها الولايات المتحدة الأمريكية، أمام الاتحاد السوفياتي. وأخذت تسعى لتوجيه مؤتمر جنيف إلى طرق خفية لتتستر على نواياها المبيتة لمنطقة الشرق الأوسط. وقد قام الاتحاد السوفياتي بكشف هذه المحاولات، وقطع عليها الطريق، وحال دون تنفيذها، من خلال أعمال المؤتمر. وبيّن للعالم أن للولايات المتحدة الأمريكية، وجهان وتسعى لحل قضية الصراع في الشرق الأوسط من خارج أعمال المؤتمر الدولي.

إن توقيع «اتفاق كامب ديفيد» ـ مؤخراً ـ هو التاج الذي زين رأس السادات والدبلوماسية الأمريكية وبالتالي أودى برأس السادات نفسه. إن نهاية كل ظاهرة يعني بداية لظاهرة جديدة. وأن الشعب المصري قد أخذ يشعر بمرارة النتائج التي جاء بها السادات لشعبه، بسبب سيره خلف السياسة الأمريكية ومدى انعكاس ذلك ـ سلباً ـ على الوضع الاقتصادي للشعب المصري الطيب. هذا من جهة، ومن جهة أخرى على علاقات مصر مع الدول الأخرى بما فيها الدول العربية. إلا أن هذا يجب ألاَّ يدعو الشعب المصري إلى الاكتئاب واليأس ـ وهو شعب عظيم لايعرف الاكتئاب ـ بل أن يجمع شتات قوته ليجد الطريق الصحيح الذي سيقوده إلى الامام. إن أصدقاء مصر مازالوا يؤمنون وبإخلاص وثقة كبيرة بإمكانيات هذا الشعب الطيب في تجديد وإزالة الهم والحزن عن هذه التجربة التي أقحمهم بها السادات.

عند هذا الحد كان من المفترض أن يضع المؤلف نقطة لينهي مذكراته إلا أن الأحداث اقتضت مني أن أعود إلى مصر في كانون الأول من عام ١٩٨٧ ـ كرئيس لإدارة جمعية الصداقة السوفياتية ـ

المصرية. وأن يكون عملي متناسقاً مع أعمال رئيس إدارة جمعية الصداقة المصرية ـ السوفياتية. وزير الدولة للشؤون الخارجية لجمهورية مصر العربية بطرس غالي.

لا أخفي أنني كنت أرغب أشد الرغبة بالبقاء في مصر. وكان يشدني إلى هذا البلد كثير من الحنين والاشتياق إلى تلك الأيام التي كانت تتطلب منا عملاً دائماً، عملاً كبيراً وهائلاً كالذي أعطيته من صحتي وأعصابي أيام «حرب أكتوبر»، إلى جانب هذا الحنين إلى هؤلاء الأصدقاء، إلى تلك العلاقة التي كانت تربط بين شعبينا، الصداقة والثقة المتبادلة. كم عشنا هناك من ساعات فرح وحزن، وخاصة عندما أخذت السياسة المصرية تلفق لبلدنا التهم الباطلة والجائرة. فبعد مؤتمر كامب ديفيد لجأت السلطة المصرية إلى إغلاق المركز الثقافي السوفياتي في كل من القاهرة والاسكندرية، ثم طرد جميع الخبراء والفنيين السوفيات العاملين في محطة أسوان للطاقة الكهرمائية ومن القطاعات الاقتصادية الأخرى، التي تم بناءها من خلال المعونات والمساعدات السوفياتية. كما أوقفت أعمال البناء في المجمّع السكني السوفياتي وإغلاق فرع السفارة السوفياتية في الاسكندرية والقنصلية السوفياتية في بور سعيد، كما لجأت إلى تقليص كبير في عدد العاملين بالسفارة السوفياتية، ثم طلبت السلطة المصرية ـ أخيراً ـ ترحيل السفير السوفياتي.

طبعاً مُنعت جمعية الصداقة السوفياتية ـ المصرية من ممارسة نشاطاتها. امتلأت الصحف المصرية بالتهم الملفقة، والتي كانت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الأخرى تجهزها للإعلام

المصري ضد بلادنا، وأصبحت مصر تعيش حالة من العداء للسوفيات. لكن الشمس دائماً تبدد كتل الظلام. فبعد مقتل السادات التراجيدي بدأت كتل الظلام تتباعد قليلاً قليلاً لتظهر الحقيقة.

ان أمنيتي الطبيعية هي أن تعود العلاقات بين الاتحاد السوفياتي ومصر لتكون علاقات طبيعية. بقيت في القاهرة لمدة أسبوع واحد، التقيت خلال هذه الفترة القصيرة مع الكثير من الشخصيات السياسة المصرية، القسم الأعظم منهم تعرفت إليهم حديثاً، وكذلك مع الأصدقاء السياسيين القدامى، وشعرت أن البلد تنظر حولها متفحصة ـ ماذا حدث؟.. ثم لتفكر إلى أين، وكيف ستسير لتعاين ولتتفحص ما مر بها من أحداث ـ تلك الأحداث التي كنت شاهداً عليها.

.. أتذكر في ذروة الصداقة بين حكومة مصر والولايات المتحدة الأمريكية، كانت قد وصلت إلى الاسكندرية حاملة الطائرات الأمريكية، وأخذت طائرات الفانتوم تستعرض إمكانياتها في السماء الزرقاء، وامتلأت شوارع الاسكندرية بجنود البحرية الأمريكية، وأخذ أبناء الشعب المصري البسيط يخرج إلى الشوارع وهو يصيح «الدولارات تطير، الدولارات تطيرا» ـ بدا لهم وكأن مستقبلهم قد تمت ضمانته بفعل الإعلام المكثف والذي كانت الإدارة المصرية تخرجه «ـ بأن أمريكا ستنقذ هذا الشعب الطيب من الأيام الصعبة التي كان يعيشها».

عندما استقبل السادات نيكسون، لم يكن لفرحه حدوداً

«الولايات المتحدة الأمريكية معنا». ابتسامة كيسنجر الواسعة أمام عدسات التصوير معبراً عن فرحه. كان كيسنجر، ومعه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ورئيس مصر ونسائهم يستمتعون برقصة «هز البطن»، والتي كانت الراقصة الشهيرة سهير زكي تؤديها ببراعة. كانوا جميعاً ينظرون إلى المستقبل بفرح، وأن مستقبلاً مشرقاً بات بانتظار مصر، «أمريكا معنا»!

قضية الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، مستقبل الفلسطينيين.. لقد قاموا بإبعاد هذه المسائل الملحة إلى طرف قصي وبعيد عن اهتماماتهم.. خلاص لم يعد لإسرائيل أية أهمية في السياسة الأمريكية.. «لقد كسبنا أمريكا» وستحل مصر مكانها، لقد أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية تعتمد على مصر في لعبة الشطرنج الشرق أوسطية.

وحان الوقت لإنتهاء فصل الفرح والابتهاج، قتل السادات.. ماذا سيحصل بمصر بعد ذلك؟

كانت الدول العربية قد قطعت علاقاتها مع مصر، الديون المستحقة بلغت أرقاماً خيالية.

جاء الرئيس الجديد حسني مبارك، كوريث لتركة من المصائب والمشاكل المعقدة. لم يخف عنا المشاكل التي يعاني منها الاقتصاد المصري، متذكراً الأحاديث التي كنا نتبادلها فيما مضى:

يجب أن نطور صناعتنا الوطنية وأن نطور تعاوننا مع الاتحاد السوفياتي، وضرورة العودة إلى طرح إقامة مؤتمر دولي لحل قضية الشرق الأوسط بمشاركة الاتحاد السوفياتي.

كانت جلستنا مع الرئيس حسني مبارك بعيدة عن التكلف وقد رحب بنا ترحيباً مناسباً.

تم تجديد نشاط جمعية الصداقة المصرية ـ السوفياتية، وإعادة عمل الملحقية التجارية السوفياتية. ووضعت أسس جديدة لإعادة العلاقات الاقتصادية والتعاون مع الاتحاد السوفياتي وأعادت الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر.

أثناء مشاركتي في مؤتمر «الطاولة المستديرة» في «معهد الدراسات الاستراتيجية»، وبوجود أكبر مؤسسة عربية للنشر «الأهرام»، شعرت بمدى الاهتمام العظيم الذي تبديه الحكومة المصرية بأعمال البروسترويكا التي تجري في الاتحاد السوفياتي ومساعينا السلمية، والأمنيات الطيبة التي يبدونها لنا في مجالات العمل المتنوعة. «المصريون يريدون التفاهم مع الاتحاد السوفياتي ويرغبون في إقامة علاقات تعاون».

ربما لهذا السبب عاد اسم جمال عبدالناصر إلى الشارع المصري. انهم هؤلاء المصريون البسطاء يذكرون ويفهمون الدور الذي قام به الاتحاد السوفياتي، في تطوير اقتصاد بلادهم، وأهمية سد أسوان الذين أنقذ بلادهم من خطر الفيضان والعطش. ولا داعي للحديث عن الكهرباء الرخيصة التي قام هذا السد العظيم بتأمينها للمواطن وللصناعة المصرية والتي تستخدم في إدارة معامل الألمنيوم التي تم بناءها من خلال المساعدات السوفياتية ومعامل نجا حمادي، والصناعة التعدينية، وأفران صهر الحديد في حلوان ـ كما أن معمل السيارات هو دليل آخر على التعاون السوفياتي ـ المصري.

وقد ثمن الشعب المصري هذه المساعدات وأشكال التعاون، لقد استمعت إلى تأكيدات كثيرة ـ اعتباراً من زعماء في الحكومة المصرية مروراً بجرسونات المطاعم، عن الدور السوفياتي الفعال والإيجابي في مساعدة مصر وانتصارها في «حرب أكتوبر عام ١٩٧٣».

ماذا بخصوص الولايات المتحدة الأمريكية؟.. إن الكثير من الأصدقاء القدامى والجدد يخجلون من شكل «التعاون»، الذي أبدته وأبداه السادات. ولا ألح عليهم كثيراً. لأن كل شيء قد صار واضحاً ولاحاجة للحديث عنه. بعد أن أدرك الكثير منهم أهمية الدور الذي لعبه الاتحاد السوفياتي والمساعدات التي قدمها لمصر دفاعاً عن حرية مصر، عن إرادة مصر، مقابل الإصرار الأمريكي على محاولاته ـ لجعل السياسة المصرية سياسة تبعية، إلى جانب ذلك فإنهم يدركون بأن الخلاص من شبكة الصيد المعدنية والتي ألقيت على مصر أمر ليس سهلاً.

الزيارة التي قمت بها للقاهرة ١٩٨٧ ، كانت زيارة مفرحة، تبعث على الأمل، كانت مفرحة لأن العمل الذي قامت به بلادنا والذي قام به الخبراء السوفيات من إنجازات في مختلف الميادين والقطاعات الاقتصادية المصرية لم يُنْتَس مطلقاً، بل مازال يذكره أبناء الشعب المصري الطيب. وهذا يعني أن مستقبل العلاقات السوفياتية ـ المصرية سيكون مستقبلاً جيداً.

انتهى

مصـر
في زمن الإبهام

بدءاً من وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وكيف كانت الجنازة إلى مرحلة ما بعد عبد الناصر وتعددية الأقطاب إلى تصفية الأقطاب وتفرُّد السادات بالسلطة دون منازع إلى حرب أكتوبر (تشرين) وكيف بدأت؛ كيف انتهت، سير الأحداث من وراء الكواليس، إيقاف الحرب، المفاوضات. الدخول الامريكي والغموض الذي كان يلف الأمور في تلك الفترة. كل ذلك يرويه السفير السوفياتي السابق فلاديمير فينوغرادوف الذي عايش مرحلتي عبد الناصر والسادات وشارك في شطر من مفاوضات جنيف إلى أن انفردت امريكا في الحل وأخرج الاتحاد السوفييتي.

مذكرات شيّقة لكنها تبعث على الأسى، الأسى فيما يخصنا كعرب لما ضيّعناه من فُرص. والأسى فيما يخص الاتحاد السوفييتي لما لاقاه من جمود وضياع رغم كل ما بذله في عالمنا العربي، حتى أن البعض قال: كان للعرب نصيب في مقتل الاتحاد السوفييتي.

